مكتبة البنين
قسم الدوريات

حولية كلية الشريعة والدراسات الإسلامية

العدد السابع
١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م

غير مصرح بإعارته من المكتبة

عالمان اثنان .. لا ثلاثة

« مناقشة لمصطلح العالم الثالث »

الأستاذ الدكتور
عدنان محمد زرزور
الأستاذ بقسم الدعوة والثقافة الإسلامية

يناقش هذا البحث الفكرة الشائعة التي تقسم العالم إلى ثلاثة عوالم ، مؤكداً على أن العالم الثالث ينبغي أن يدعى العالم الثاني ، لأن معسكري الحضارة الأوروبية أو شقيها عالم واحد هو عالم المستكبرين ، وأن سائر الشعوب المستضعفة هي العالم الثاني .

أناقش في هذا البحث الفكرة القائلة بتقسيم العالم المعاصر ، أو العالم الذي ننتمي إليه إلى ثلاثة عوالم : الرأسمالي ، والاشتراكي ، ومجموعة الدول التي توصف بأنها دول « متخلفة » أو نامية . . وهي الدول المقصودة باصطلاح « العالم الثالث » كما هو معلوم .

والهدف الذي نرمي إليه من هذه المناقشة بيان خطأ هذا التقسيم المشهور ، وفساده ، من جهة ، والضرر الذي يعود على شعوب « العالم الثالث » أو الذي عاد عليها حقيقةً حين قبلت بهذا التقسيم ، أو حين راج عليها . . من جهة أخرى .

وإذا كنا سنحاول إثبات أننا ننتمي إلى عالمين اثنين لا إلى ثلاثة عوالم ؛ فإن هذا يقتضينا بطبيعة الحال بيان التسمية المناسبة لكل واحد من هذين العالمين ، وسوف نناقش في هذا السياق ، من خلال ثقافتنا الإسلامية ، وبأقصى قدر من الموضوعية ، مصطلحي « التقدم والتخلف » بوصفهما عنوانين مرفوضين كذلك ، كما سنشير في الوقت نفسه إلى « الخصوصية » التي تتمتع بها شعوب العالم الإسلامي ، على الرغم من انتمائها إلى أحد العالمين السابقين ، أو موضوع البحث ؛ وذلك لأن طبيعة هذا التقسيم المقترح متصلة بالخصوصية الحضارية والثقافية للإسلام . . بغض النظر عن « واقع » الشعوب الإسلامية ، أو المكانة غير اللائقة التي انحدرت إليها في عالم اليوم !

ينقسم العالم المعاصر إلى عالمين اثنين لا ثالث لهما ، وهما العالم الأول ، والعالم الثاني . . ونعني بالعالم الأول : العالم الذي تمثله أو تحتله الحضارة السائدة بشقّيها الرأسمالي والاشتراكي ، ونعني بالعالم الثاني سائر الدول ، أو ما يطلق عليه « العالم الثالث » في المصطلح المتداول أو المشهور . نحن في الحالة الأولى أمام عالم أوروبي صناعي ، قوي ، غني ، ومستغِل ، وبكلمة واحدة : نحن أمام عالم مستعمر . أما في الحالة الثانية فنحن أمام عالم ضعيف ، فقير ، ليس بصناعي ، أو بكلمة واحدة : نحن أمام عالم مستغَل أو مستعَمر . . وبعبارة أدق : عالم مازال يعيش « الحقبة الاستعمارية » أو « المناخ

الاستعماري » نظراً لأن سياسة « العالم الأول » أو أغراضه مازالت تجري عليه .. أو ما يزال يخضع لها أو تنفذ فيه !!

إن هذا التقسيم المقترح يقتضينا البحث في عدة محاور ، أهمها وأوسعها المحوران التاليان :

١ ـ إثبات الطابع الاستعماري للحضارة الأوروبية ، بوجه عام .

٢ ـ بيان أن الانشطار الذي وقع في هذه الحضارة ، على مستوى النظر ، أو تكرس فيها ـ بعد الحرب العالمية الثانية ـ على مستوى التطبيق ، لا أثر له في نفي الطابع الاستعماري السابق عن « الاشتراكية العلمية » ! ـ كما دعاها أصحابها ـ أو عن « روسيا السوفيتية » التي « قادت » الشطر الاشتراكي بعد الحرب .

ومعلوم أن هذا الانشطار هو الذي دفع بالعالم الثاني إلى العالم الثالث ؛ حيث ظن الناس أن أوروبا أضحت عالمين .. بل ذهب الوهم ببعضهم إلى حد عدهما حضارتين[1]!!! .

ودفعاً للتكرار ـ وربما تأثراً بمناخ الانشطار أيضاً ـ فإننا سوف نوسع دائرة الحديث في المحور الأول ليشمل ، من المحور الثاني ، مناقشة الفكرة التي أشاعها « ماركس » والتي ربط فيها بين الاستعمار والرأسمالية أو الإمبريالية ؛ لأن هذه الفكرة تشكل القاعدة النظرية التي استند إليها القائلون بانقسام الحضارة الأوروبية أو المجتمعات الصناعية الغنية والقوية إلى عالمين : أحدهما رأسمالي ، والثاني اشتراكي ! وبعبارة أخرى : إننا سوف نبحث في المحور الأول ربط الاستعمار بالحضارة الأوروبية (بشقيها) لا بالرأسمالية وحدها ! ثم نخصص المحور الثاني (للممارسات) الاستعمارية في الشق الاشتراكي إذْ كانت هذه الممارسات في الشق الرأسمالي لا تحتاج بعد ذلك إلى مزيد من البيان ! ثم نناقش في محور

---

(١) د . سمير أمين : التطور اللامتكافىء ، دار الطليعة ، بيروت ١٩٨٠، ص ٣٩٤ . يقول : إن الحضارة المستقبلية الصاعدة ، والتي تشكل البديل الطبيعي من الحضارة الأمريكية الرأسمالية ، هي الحضارة الاشتراكية ، ويعلل ذلك بأن « الامبريالية الأمريكية قد وصلت إلى درجات عالية من النمو بحيث إن أي مزيد من التطور يعني تلقائياً انهيارها التدريجي » ومن ثم فإن المرحلة الراهنة من الامبريالية هي أيضاً مرحلة نهاية الرأسمالية .

ونحن هنا لا نناقش هذه « النبوءات » ! ولكننا نرى أن الانهيار ـ حين تتهيأ جميع أسبابه ـ انهيار حضارة ، وليس نهاية « نظام » ! ، علماً بأن الذي يحدث الآن في « الحضارة الاشتراكية » ! أبعد ما يكون عن تلك النبوءات !!

ثالث مفهوم التقدم والتخلف ، قبل أن ننهي البحث إن شاء الله بالمحور الرابع والأخير حول خصوصية العالم الإسلامي في العالم الثاني .

أولاً : الاســـتعمـار كمـــبر ر حضـــاري

لقد دارت عجلة الحضارة الأوروبية ، بشقيها السابقين ، أو قبل ذلك الانشطار وبعده ، على الاستعمار ، وعاشت عليه كمبرر أو روح ميزت بين نوعين من الناس : أوروبي متمتع بجميع الحقوق ، وغير أوروبي مسلوب من جميع الحقوق . وإذا كانت الحضارة ـ أي حضارة ـ لا تقوم إلا باجتماع عنصري : الانسان والطبيعة (أو التراب بحسب تعبير الأستاذ مالك بن نبي رحمه الله)[٢] . . . بالاضافة إلى بعض العناصر الأخرى ؛ فإن الحضارة الأوروبية تمت لها السيادة والغلبة و « التقدم » حين قهرت الانسان وسرقت الطبيعة فيما وراء السهوب والبحار ! يقول جارودي . . « الاستعمار نهب ، ولكنه بالدرجة الأولى قتل ! »[٣] .

وغني عن البيان أن البلاد المستعمرة ـ وما اكثرها[٤] ـ كانت مناخاً وأرضاً وإنتاجاً ونشاطاً بشرياً ، وطرق مواصلات ، وسوقاً استهلاكية . . . كانت في ذلك جميعه في خدمة « المستعمر الأوروبي » أو في خدمة « الرجل الأبيض » ! فإذا أضفنا إلى ذلك أن مئات الألوف من أبناء هذه البلاد قدمت أرواحهم وأجسادهم في سبيل بناء « البلاد الأوروبية » في أيام السلم ، والدفاع عن أبنائها في أيام الحرب . . أدركنا المعنى الاستعماري في هذه الحضارة . . وأدركنا معنى أنها قامت على سرقة الطبيعة وقتل الإنسان !

ويمكننا تأكيد هذا المعنى ، أو المبرر ، بملاحظة أن الاستعمار لم يعد هاجس الدول والحكومات الأوروبية فحسب ، بل صار هاجس الأفراد والجماعات ، وبات يشكل

---

(٢) مالك بن نبي : شروط النهضة ، دار الفكر ، دمشق ، ص ٤٥ ، ص ١٤٨ .

(٣) روجيه جارودي : حوار الحضارات ، ترجمة الدكتور عادل العوا ، دمشق . وانظر لتقدير حجم النهب : رمزي زكي : التاريخ النقدي للتخلف ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت .

(٤) وصل الاستعمار إلى جميع أرجاء الكرة الأرضية تقريباً . ووقعت إفريقيا كلّها (ما عدا الحبشة وليبيريا) تحت السيطرة الأوروبية ، كما وقع تحت هذه السيطرة ٦٥٪ من قارة آسيا (بما فيها آسيا الوسطى التي احتلها الروس) و ١٠٠٪ من قارة استراليا و ٢٧٪ من امريكا اللاتينية .

انظر : فيليب بريار وبيار دوسينار كلنز : الامبريالية ، ترجمة عيسى عصفور ، منشورات عويدات ، ١٩٨٢ ص ١٨ . وانظر : رمزي زكي ، التاريخ النقدي للتخلف ، ص ٥٤ .

« مناخاً عاماً » و « حالة نفسية » كذلك ! فعلى صعيد « المناخ الاستعماري » يلاحظ الأستاذ مالك بن نبي رحمه الله أن الطفل كان ينشأ في ذلك الوقت وحوله جو من الأفكار منبتها الاستعمار ، أي المناخ الاستعماري الذي تكوّن في أوروبا ! كان الطفل يشبع جانب تعطشه للأشياء الغريبة ، والقصص النادرة ، وقصص البطولات في جو الاستعمار ، وفي ملحمة الفكرة الاستعمارية ؛ بحيث لا نستغرب أن رجلاً كـ« ستانلي » في أواخر القرن الماضي ، نشأ في هذا الجو ، وتكونت عنده فكرة استعمارية ، أو فكرة الاكتشافات والفتوحات . . يغادر وطنه وينزل إلى افريقية الوسطى فيحتل قطاعاً كبيراً من هذا الاقليم ـ بمعداته ورجاله بوصفه تاجراً !! ـ ويقدمه « هدية » لملك البلجيك ، فصار يعرف بالكونغو البلجيكي ! لقد لاحظ (ستانلي) أن هذا الإقليم قطعة بيضاء على الخريطة . . أي أنه لم يستعمر أو يكتشف بعد ؛ لأن كل دولة أوروبية كانت تلوّن « مستعمراتها » بلون خاص على الخارطة ، بحيث يتبين للناظر فيها « البلاد التابعة لها » أو بعبارة أخرى : « البلاد التي اكتشفت » لأن الفرد الأوروبي « كان يرى كل بقعة بيضاء على أنها من مجاهل الأرض التي تنتظر اكتشافه ، أي على أنها البلاد المعدة لامتداد شخصيته في هذا الكون »[٥].

وفي ظل هذا (المناخ الاستعماري) لا يبدو غريباً كذلك ، أن يقوم من فرنسا كاتب قصصي كبير ، في أواخر القرن الماضي ، ليكتب عن ملحمة لا تمت بصلة إلى بطولة الفرنسيين أو بطولة الجيش الفرنسي !! فقد وصف في هذه الملحمة « فتح » الروس لمدينة بخارى ! وهي قصة غربية إن دلت على شيء فإنما تدل على سيادة المناخ الاستعماري في شرق البلاد وغربها[٦]! . . كأنّ الروس قاموا بما كان يجب أن يقوم به أي أوروبي آخر !! سواء أكان فرنسياً أم غير فرنسي !

والواقع أن فكرة (الاستعمار) كانت مقترنة بالاكتشاف ، من ناحية ، وبـ « التمدين » أو التحضير ـ إن صح التعبير ـ من جهة أخرى . وقد بدأ ذلك كله في العقد الأخير من القرن الخامس عشر الميلادي . وتم ، كما هو معلوم ، في إطار تلك الحركة

(٥) مالك بن نبي : تأملات ، دار الفكر ، دمشق ، الطبعة الثالثة ١٩٧٧ ، ص ٤٢ .

(٦) مالك بن نبي : دور المسلم في الثلث الأخير من القرن العشرين ، والكاتب هو « جلفرن » ، وعنوان ملحمته : « ميشال ستروجون » .

المعقدة التي تسمى في التاريخ بحركة النهضة ، والتي عبرت عن نفسها بأنها رجوع إلى العهد الروماني والإغريقي(٧) .

وليس في وسعنا تفصيل القول في هذه النقاط الهامة ، لأنها جديرة ببحوث أخرى مستقلة ، ولكننا نكتفي هنا بتفسير ذلك الارتباط ، من جهة . وبيان صلة ذلك « التمدين » برسالة الحروب الصليبية التي سبقت حروب الاستعمار وحركة الكشوف الجغرافية ، من جهة أخرى . وسوف تكشف لنا هاتان الجهتان عن تفسير آخر للاستعمار ليس مفصولاً عن « التفسير الحضاري » السابق ، ولكنه يتممه ويوضحه ، ويشير إلى أصوله ، بوصفه ـ أي الاستعمار ـ حلقة من حلقات الصراع بين الحضارتين « العربية الاسلامية » و « الأوروبية المسيحية » جاء في أعقاب الحروب الصليبية ولم ينفصل عنها . . بمعنى أننا حين نتحدث عن الاستعمار كمبرر حضاري ، نجد أن في وسعنا ، وربما كان من واجبنا أن نعبر عنه ، أو أن نعرضه أيضاً تحت عنوان « صراع الحضارات » الذي يعد تعبيراً أو صورة من تعاقبها أو تداولها عبر العصور . . أو على مسرح التاريخ . . وقد بدأ مع نهاية القرن الخامس عشر المشار إليه نجم الحضارة الأوروبية بالظهور . . ليصل ما انقطع من تراث الحضارة الرومانية / اليونانية . . مرة أخرى .

النشـــأة والتـاريـــخ :

بدأ المد الاستعماري مع انحسار الوجود الاسلامي في أسبانيا بعد سقوط مملكة « غرناطة » آخر معاقل المسلمين في الأندلس أو شبه جزيرة ايبرية ، بيد النصارى الاسبان ، وهو الحدث الذي ارتبطت به حركة الكشوف الجغرافية ، لأنها كانت بسببه وجاءت في أعقابه ؛ فقد سقطت غرناطة في الثاني من ربيع الأول عام ٨٩٧هـ الموافق للثاني من كانون الثاني (يناير) عام ١٤٩٢م وغادر كريستوف كولن اسبانيا في الثالث من شهر آب (أغسطس) من العام نفسه ! ولم يكن ذلك من عجيب المصادفات التاريخية !! كما ظن بعض الدارسين ، ولكنه من دقيق الصراعات الدينية والحضارية ! فإن كريستوف

---

(٧) مالك بن نبي : في مهب المعركة ، دار الفكر ، دمشق ١٩٨١ ، ص ١٦٠ .
وانظر الصفحات الأولى من كتاب ؛ تاريخ الحضارة الأوروبية ، تأليف كلود دلماس ، ترجمة توفيق وهبة ، الطبعة الثانية ١٩٨٢ . منشورات عويدات . وانظر فيه تفسيراً لقوله : « إن امبراطورية الفرنجة أرست لأوروبا القرون الوسطى أسسها وقواعدها ، ولكن أوروبا لم تكن لتتوحد بدون الإسلام » . ص٨ .

كولن عرض مشروعه على عدد من الأمراء والنبلاء .. فلم يجبه إلى المساعدة إلا الملك « فرناندو » والملكة « ازابيلا » - ملكي أراغون وقشتالة - اللذين سقطت غرناطة على أيديهما ... فقد زهاهما ذلك الانتصار « التاريخي » الكبير ... وكان لديهما من الحماسة ما يكفي لمساعدة « كولن » في مشروعه لتطويق العالم الإسلامي .. أو لاستعادة الأراضي المقدسة من أيدي المسلمين . وتعتبر فكرة « كروية الأرض » في هذا السياق نموذجاً للأفكار العلمية التي كان لها أثر « في نشأة الاستعمار .. وفي خضوعها لدواعي المصلحة ، وفي إخضاعها لتلك الدواعي بالمشيئة والأقناع »[8] كما تعتبر بطبيعة الحال نموذجاً لاختلاط الأسباب والدواعي .. بحيث « تدق » ملاحظتها في كثير من المراحل ، وخصوصاً أمام عوامل المنافسة - الاستعمارية - والمزاحمة ، التي نشأت فيها بعد . ولكن ذلك كله لا يعفينا من محاولة وضع هذه الأسباب في سياقها الصحيح ، وتفسيرها في ضوء هذه النشأة ، من جهة ، وفي ضوء « البواعث » - التي سنعرض لها بعد قليل - من جهة أخرى .

في مسألة النشأة ، أو في موضوع صلة رحلة كريستوف كولن بالحروب الصليبية والاستعمار ، يشير الدكتور « آرنست باركر » إلى أن آسيا كانت خلال القرن الثالث عشر موصولة وصلاً واهياً بحبال الامبراطورية المغولية ، التي كانت تمتد من شبه جزيرة القرم وتبريز .. إلى كمبالوك (بكين) وكسناي (هنكاو) عن طريق بخارى وسمرقند .. ويقول : كان المتحمسون من النصارى يرجون تحويل المغول إلى المسيحية « وبذلك تقع الأراضي المقدسة بين المغول المسيحية وأوروبا المسيحية ، فلا يكون هناك مفر من بقائها في قبضة المسيحيين بقاءً دائماً » ولكن هذا المشروع « قد تضاءل واختفى » على حد قوله ، على الرغم من « الإرساليات التي اتسعت غايتها بعد اتصالها بالحروب الصليبية حتى تعدت الحدود التي كانت قد رسمت لها »[9] كما يقول .

ففي سنة ١٣١٦ اعتنق خانات المغول الإسلام ، وفي منتصف القرن الرابع عشر عم الإسلام وسط آسيا . وبين سنتي ١٣٦٨ ، ١٣٧٠ أقفلت أسرة « منج » الوطنية أبواب الصين في وجه الأجانب « فكانت الخاتمة أن قطع السبيل على المسيحية ، ومهد الطريق

---

(٨) عباس محمود العقاد : لا شيوعية ولا استعمار ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ص ٦٧ .

(٩) آرنست باركر (استاذ علم السياسة بجامعة كامبريدج) : الحروب الصليبية (مقالة هامة منشورة في كتاب (تراث الاسلام) ص ١٤٥ ، تعريب علي أحمد عيسى : لجنة الجامعيين لنشر العلم . القاهرة . وقارن بترجمة جرجيس فتح الله ، دار الطليعة . بيروت . والكتاب تأليف جمهرة من المستشرقين باشراف المستشرق الكبير سير توماس أرنولد .

للإسلام الذي بلغ شأواً بعيداً من الاتساع ، وترامت أطرافه بفضل الأتراك العثمانيين »[10]!

يقول باركر : « ولكن بارقاً آخر لمع في خيال الغرب الذي لا يقهر (!!) وكان هذا الأمل الجديد قميناً بأن يشعل ثورة من أعنف ثورات التاريخ . ذلك أن الطريق الأرضي (البر) وقد قفل ، فلماذا لا تسلك المسيحية سبيل البحر ؟ لماذا لا تبحر إلى الشرق فتهاجم الإسلام » يقول : « تلك كانت فكرة كبار الملّاحين الذين كانوا يحملون الصليب فوق صدورهم ، والذين كانوا يعتقدون مخلصين أنهم كانوا بعملهم هذا يجاهدون لاستعادة الأراضي المقدسة »[10] .

ويبدو للباحث أن هذا السبب الديني / الحضاري ، الذي استخدم الفكرة العلمية - فكرة استدارة الأرض - وإمكان الوصول إلى المشرق من الاتجاه إلى الآفاق الغربية يمثل بداية الربط بين فكرتي الاكتشاف والاستعمار الذي استمر طيلة القرون الاستعمارية التالية . . لأن كولن - أو كولمب - قد قدر له « أن يجد الجزائر الكاريبية في طريقه بدلاً من « كاثاي » أي قدر له أن « يكتشف » قارة جديدة . أو بحسب عبارة « باركر » : « إن الإسبان الذين عاونوا كولمب قد كسبوا قارة جديدة للمسيحية ، وإن الغرب استطاع أن يعيد رجحان الميزان لصالحه بطريق لم تكن تخطر له ببال »[11]! .

فقد غدا « اكتشاف العالم القديم » إن صح التعبير واستعمار آسية وإفريقية ، أو استعمار ما ليس بأوروبي ، في مثل أهمية أو خطورة اكتشاف العالم الجديد[12] . . وما تبعه من تغير في ميزان القوى ، على النحو الذي أشار إليه « باركر » . والحق أن موقف الأوروبي إزاء الانسانية بصفة عامة موقف المنفصل عنها أو المنعزل . . أو الملتفت عنها كأنه ليس منها بل يتربص بها الدوائر[13]! والطريف هنا أن الشعوب المكتشفة - بفتح الشين - تتحدث عن حركة « الكشوف » السابقة باللسان الأوروبي ! وفي هذا يقول الأستاذ طارق البشري على سبيل المثال : « ثم إن اكتشاف أعالي النيل هو اكتشاف للغرب ، ولكنه بالنسبة لأهالي وادي النيل فإنه من السخرية بهم أن يلقنوا أنهم اكتُشفوا !! وأن بلادهم اكتشفت بواسطة

(١٠ - ١١) : المصدر السابق .

(١٢) يقول كلود دلماس : « إن حب المغامرات النائية استهوى قلوب الأوروبيين » تاريخ الحضارة الاوروبية ، مرجع سابق ، ص ٩١ .

(١٣) مالك بن نبي ، شروط النهضة ، مرجع سابق ، ص ١٦٠ .

الرحالة الأوروبيين . ومن الضعة والخزي أن نعتبر أنفسنا كإفريقيين أننا وجدنا في الوعي البشري يوم رآنا الرجل الأبيض ، كأننا موضوع مدرك ولسنا بذات واعية !!»(١٤).

أما صلة الاستعمار والكشوف أو « الفتوحات » بالمعنى الديني ، أو بصراع الحضارات . . فقد أشير إليها كذلك من خلال حديث « باركر » ولكننا نضيف هنا ما كتبه الأستاذ عباس محمود العقاد رحمه الله في بيان هذه الصلة ، وأنها قامت على الطبيعة الواحدة أو المتماثلة ! فدعوى الاستعمار ، ودعوة الحروب الصليبية ، ترتبط إحداهما بالأخرى ارتباط النتائج بالمقدمات ، أو المسببات بالأسباب . . فرسالة الرجل الأبيض ، وأمانة الحضارة الأوروبية ، أو « الأمانة التي اضطلعت بها هذه الحضارة لأصلاح أمم العالم » أو لتمدينه كما قلنا قبل قليل ـ وهذه رسالة الاستعمار أو فحوى الدعوى الاستعمارية ـ ليست إلا « النسخة المنقحة من رسالة الخلاص الروحي وأمانة الإصلاح وتطهير الأرض من مفاسدها » وهذه هي دعوى الحروب الصليبية التي سبقت حروب الاستعمار الحديث . .

يقول العقاد : « ولم يتحول الأوروبيون إلى هذه الدعوة ـ الاستعمارية ـ إلا لأن هذا التحول ضرورة قاسرة تفرضها مجاراة الزمن على أنصار الكنيسة ومعارضيها ، فقد كان القرن السادس عشر وما بعده فترة متسّمة بالانشقاق بين أتباع الكنيسة والثورة على سلطانها ؛ فتحول المستعمرون إلى النداء بأمانة الرجل الأبيض لأنه النداء الذي يعطي الأوروبيين ما يدعونه من حقوق الفتح والسيادة ، ولا يلجئهم إلى الاعتراف بالسلطة الدينية والتسليم بما تميز به بعض المستعمرين على بعض من حقوق التبشير والولاية ! ولم يرفض أنصار الكنيسة هذا النداء الجديد ، بل قبلوه وكرروه لأنه نداء يؤيد الدعوة الدينية في بعض معانيه ، ولا يستلزم حتماً أن يلغيها أو ينقضها ويسقط حقوقها . ولعله كان وسيلة منتظرة للتوفيق بين روح الزمن الماضي وروح الزمن الحديث ، زمن الثورة العلمية ، والتبشير باسم الثقافة الإنسانية ، فمن أراد من المستعمرين أن يجاري العصر ولا ينشق عن الماضي أمكنه أن ينادي رسالة « الرجل الأبيض » كأنها كلمة مرادفة لرسالة القارة الأوروبية ؛ تشمل بدعواها كل ما شملته دعوة هذه القارة قبل عصر الاستعمار بعدة قرون ، فإن حجة الرجل الأبيض إنما هي حجة القارة الأوروبية في جميع عصورها ، ويزداد عليها بعد عصر الحروب الصليبية أنها امتدت إلى الرجل الأمريكي الذي صبغ الأقطار النائية فعلاً بالصبغة البيضاء ، وحقق لها السيادة على الأجناس الحمراء والسوداء »(١٥).

---

(١٤) طارق البشري : مجلة اليوم السابع ، العدد الصادر بتاريخ ١٩٨٩/١/٢٣ الصفحة الأخيرة .

(١٥) عباس محمود العقاد : لا شيوعية ولا استعمار ، ص ٥٨ ـ ٥٩ .

على المستوى النفسي :

أما على صعيد « البواعث النفسية » التي تؤكد « أصالة » النزعة الاستعمارية لدى الفرد الأوروبي وارتقاءها إلى درجة « المبرر الحضاري » كما قدمنا ؛ فقد قام الأستاذ الفرنسي « منوني » بشرح هذه النزعة وتحليلها في مؤلف خاص بسيكولوجية الاستعمار ؛ وذلك بحكم اشتغاله بالفلسفة وعلم النفس ، كما يذكر الأستاذ مالك بن نبي[١٦]، وكذلك بحكم رؤيته أو معايشته لأعتى الصور الاستعمارية التي كانت تمارسها فرنسا في الجزائر في أواسط هذا القرن ؛ فيما نقدر[١٧]. تحدث المسيو « منوني » عن التناسب الموجود بين « وحدة المكان » أو الجانب الموضوعي ، و « وحدة الإنسان » أو الجانب الذاتي . . ليفسر بذلك الشيء الأساسي في نفسية الاستعمار ، النزعة العنصرية ، على أنها أثر لفاصل نفسي يجزىء الذات أو وحدة الـ « أنا » ، عندما يسقط هذا الفاصل الذاتي على سطح الجانب الموضوعي ـ وحدة النوع البشري ـ فيجزئه إلى جزأين ، أحدهما له السلطة والسيادة ، والآخر عليه السمع والطاعة ! كما يعتقد من يدين بالعنصرية .

ولم يهمل « منوني » بالطبع سائر العوامل الأخرى التي تتصل بالاستعمار « اتصالاً تكوينياً » على حد قوله ، وهي العوامل الاقتصادية والسياسية والستراتيجية . . ولكنه يقول ، أو يردف قائلاً في تحليل بارع : « إن هذه العوامل كلها تؤدي مفعولها ، كأسباب ، في عقول مهيأة نفسياً »[١٨].

يقول مالك بن نبي : « هذا الاعتبار يمثل إلى حد ما المدخل المنهجي الذي ندخل به إلى نظرية « منوني » حيث ينشأ عنها مفهوم أولي نسميه « موقفاً استعمارياً » ثم يقول في شرح هذا الموقف :

إن « الموقف الاستعماري » ينشأ في نظر منوني كل مرة ينعكس فيها الـ « أنا » الأوروبي خارج إطار أوروبا ، أي كل مرة يقع فيها اتصال بين « الأوروبي » و « الأهلي » !

واذا كان علم الأجناس كافياً بتعريفنا من هو الأوروبي ؛ فإن « الأهلي » يمكن تعريفه

---

(١٦) راجع فصل « سيكولوجية الاستعمار » من كتاب : في مهب المعركة ، للاستاذ مالك بن نبي . ص ١٧ .

(١٧) نقدر هذا ، على الرغم من ان دراسة « منوني » كان موضوعها ابن جزيرة مدغشقر ، على وجه الخصوص ، لأن حديث « منوني » الذي يهمنا هو « المستعمر » بكسر الميم ، وليس المستعمر ، بفتحها ! ولأسباب أخرى لا تخفى على القارىء .

(١٨ ـ) مالك بن نبي : في مهب المعركة ، ص ١٩ ، ٢٠ .

بأنه « كل رجل غير أوروبي » ! وهو الذي يسمى بالفرنسية Indigéne ، وبتعبير اللغة الانجليزية Native[١٩].

ولعل الأمر يزداد وضوحاً إذا ذكرنا أن كل ما ليس بأوروبي لا يطلق عليه في الغالب « الأهـلي » فحسب ، بل « الأهـلي المتوحش » !! يقـول الاستاذ مـالك بن نبي : « ولا يخرج عن هذه القاعدة أحد في أوروبا ، حتى ماركس الذي ثارت ثائرته يوماً ، عندما رد بكل عنف على مؤرخ معاصر له ، لأن هذا المؤرخ قد وضع على صعيد واحد ، في نظره ، « آسيا » في ذلك العهد وإلى حد ما اليوم أيضاً ، في درجة ما من التأخر بالنسبة إلى أوروبا ! ولكن ماركس كان يدلي بحكمه في القضية بصورة قطعية مطلقة ، كأنما آسيا في نظره ، خلقت لتكون على طول الزمن : « آسيا المتوحشة »[٢٠].

نعود ، بعد هذا ، إلى « منوني » لنقف من تحليله المشار إليه على نقطة أخرى تكشف لنا بدورها عن « الرسالة الاستعمارية في جذورها النفسية » ، وهي التي أسماها : « الرغبة في عالم خال من البشر » يقول : إن هذه الرغبة صفة نفسية أوروبية شاملة تسم الروح الغربية بصورة عامة ! وإن أوروبا عندما نشر « دنييل دوفويه » حلمه الذي أودعه في قصته المشهورة ـ روبنسون كروزو ـ وجدت نفسها أنها تحلم الحلم نفسه ![٢١].

عـــدم ربـــط الاســـتعـــمـــار بالرأســـمالية وحـــدها :

بقي علينا ، في سبيل التأكيد ، على ربط الاستعمار بالحضارة الأوروبية بشقّيها ـ موضوع هذا المحور ـ وليس بالرأسمالية ، أو بالشق الرأسمالي وحده ، أن نناقش الفكرة التي أشاعها ماركس والتي ربط فيها الاستعمار بالرأسمالية ، أو بالثورة الصناعية والتطور الذي أصاب وسائل الانتاج ! وذلك قبل الانتقال إلى المحور الثاني ، أو الجانب العملي الذي يدور حول الواقع الاستعماري أو الممارسات الاستعمارية في الشوق الاشتراكي ، وربما كانت هذه الممارسات وحدها كافية للدلالة على ما نريد ، عند بعض الباحثين .

---

(١٩) مالك بن نبي : في مهب المعركة ، ص ١٩ ، ٢٠ .

(٢٠) مالك بن نبي : المصدر السابق ، ص ١٦١ . ويقول كلود دلماس : « لقد كان التفوق الاوروبي حالة لا يختلف عليها اثنان ، وكان الرجل الأوروبي في موقف المحرك الدائم ، وكان الكفاح مثله الأعلى ، كذلك كان همه السعى والتقدم والرقى والاستطلاع واكتشاف المجهول . وكان لجوجاً ، مقداماً وعنيداً تجاه العقبات » .

(٢١) مالك بن نبي : المصدر السابق ، ص ٢٦ .

كانت الثورة التي قامت في روسيا بعد الحرب العالمية الأولى بداية ظهور النظام الاشتراكي أو الماركسي ، على الرغم من أن هذه « الثورة الكبرى » ! لم تكن من فعل الشيوعية أو من نبوءات كارل ماركس ، بل كانت واحدة من ثورات الهزائم الكبرى التى امتلأ بها التاريخ في القديم والحديث « وكانت سبباً لإسقاط كثير من الدول التي نخرها الفساد ، وتلقت أمام رعاياها تبعات تلك الهزيمة وجرائرها ، مقرونة في أكثر الأوقات بتبعات العجز عن تدبير مصالح أولئك الرعايا »[٢٢] « وكل ما قيل عن نسبة الثورة الروسية إلى الشيوعية ، فإنما مرجعه إلى الفئة التي كانت تدين بآراء كارل ماركس ، وتسلمت قيادة الثورة بعد تمرد الجيش من أسرة « رومانوف » ، ولهذا لم يذهب عرش « رومانوف » وحده بعد هزائم الحرب العالمية الأولى ، بل ذهبت معه عروش « هوهنز لرن » و « هابسبرغ » وآل عثمان . . كما ذهبت الهزائم قبل الحرب العالمية الأولى بأسرة « المانشو » في الصين على أيدي « سن يات سن » وأصحابه من طلاب الإصلاح » .

ومهما يكن من أمر ، فإن هذه الثورة شهدت تطبيق النظام الماركسي ، أو محاولة تطبيقه . . وإن كان الانشطار المشار إليه - في واقع الحضارة الغربية والمجتمعات الأوروبية - لم يتكرس إلا بعد الحرب العالمية الثانية ، حين تم تقسيم ألمانيا إلى مناطق احتلال ، وأطلقت يد « روسيا » في أوروبا الشرقية في مؤتمر « يالطا » الذي انعقد في الفترة بين ١١ ، ١٤ شباط (فبراير) من عام ١٩٤٥ حيث التقى في المنتجع - الروسي - المذكور كلٌ من « روزفلت وتشرشل وستالين » .

وهذا ما حمل معظم الدارسين على اعتبار نهاية الحرب العالمية الثانية بداية لظهور (العالم المعاصر) ومبدأً كذلك لتقسيم هذا العالم إلى العوالم الثلاثة المعهودة !! . وبهذه المناسبة فقد جرت عادتهم بوصف هذا العالم - المعاصر - بأنه عصر ارتياد الفضاء ، وعصر « التكنولوجيا » ، وعصر ثورة المعلومات . . أو عصر الثورات بإطلاق أو بإجمال . قلت : والمدقق في هذه الأوصاف ، وسواها من الأوصاف التي تطلق اليوم . . يلاحظ أنها تطلق في حقيقة الأمر على (العالم الصناعي) أو على العالم الأول بشقّيه السابقين الرأسمالي (أو الامبريالي) والاشتراكي . وقد يكون هذا مفهوماً أو لا غرابة فيه إذا تذكرنا أننا لا نزال نعيش عصر سيادة العالم الصناعي أو عصر سيادة الحضارة الأوروبية ، وأن شعوب (العالم الثاني)- في جملتها - تنتمي إلى العالم المعاصر ، أو إلى « المعاصرة » بالنقل والاقتباس . . أو المحاكاة ، أو الولاء !

---

(٢٢) عباس محمود العقاد : الشيوعية والإنسانية ، دار الاعتصام ١٩٧٩ ، ص ٥١ .

ولكن ، كيف « ألصقت » أو قرنت النزعة الاستعمارية أو المبرر الاستعماري بالشق الرأسمالي وحده ؟ والجواب ان ذلك كان بسبب ربط « الإمبريالية » بسياسة النظام الرأسمالي العالمية ، وبخاصة بالكفاح من أجل الفوز بالأسواق وبمناطق الاستثمار . وقد ظهرت في تيار الفكر الاشتراكي سلسلة من النظريات في « الإمبريالية » تربط التوسع الاستعماري وسياسة المواجهة بين الدول العظمى ، بنمو النظام الرأسمالي(٢٣). وقد سلطت الأضواء في هذا السياق ، بصورة خاصة على كتاب « لينين » : « الإمبريالية أعلى مراحل الرأسمالية » نظراً لمكانة المؤلف السياسية ! .

وقد حاول (لينين) في هذا الكتاب أن ينشىء معادلة بين الإمبريالية والرأسمالية التي وصلت إلى المرحلة الأخيرة من تطورها : مرحلة الاحتكارات ، بحيث تعرف الامبريالية بأنها : الطور الاحتكاري ـ الأخير ـ للرأسمالية(٢٤). ويمكننا الآن فهم هذه المعادلة على أنها محاولة ـ مجرد محاولة ـ للبرهان على ضرورة الثورة ! أو بعبارة أدق : محاولة لاستغلال جميع الطاقات (الثورية) في الوضع العالمي ؛ لأن لينين وضع كتابه سنة ١٩١٦ ، أي قبل قيام الثورة الروسية ، وفي أتون النزاع العالمي ، أو في أشد صور هذا النزاع القائم والمتمثل في الحرب العالمية . . ولهذا فإننا نرى أن من صواب القول ما ذهب إليه بعض الباحثين ، حين قرروا أن لينين لم يكن يهدف من هذا الكتاب إلى « تفسير مصدر النزاع العالمي فحسب ، بل خيانة جزء من الطبقة العاملة الأوروبية في عام ١٩١٤ أيضاً »(٢٥) .

« ومن المفارقة ـ كما يرى كل من « بريار » و « كلنز » ـ أن فرضية لينين حول الامبريالية لم تسبب تطوراً فعلياً في روسيا بعد الثورة البلشفية ؛ وأننا لا نعثر في المؤلفات السوفيتية على محاولة حقيقية لإثبات صحة نظرية لينين استناداً إلى معطيات تجريبية جديدة تبين تطور الرأسمالية والعلاقات الدولية في فترة ما بين الحربين . أضف إلى ذلك أن الأبحاث التي خصصت مباشرة لبعض جوانب الرأسمالية ، كالاستعمار ، أو قضية تصدير رؤوس الأموال ، لا تتلاءم دوماً مع نظرية لينين . والواقع أن مفهوم الإمبريالية في الفكر السوفييتي يتجه بسرعة كبيرة إلى الانطباق على مفهوم الرأسمالية ، فهو إذن أداة للدعاية . . وهكذا تغدو لفظة الإمبريالية نقيضاً للفظة الاشتراكية !! »(٢٦).

---

(٢٣) فيليب بريار وبيار دوسينار كلنز : الامبريالية ، ص ٨ ـ ٩ .
(٢٤) فيليب بريار وبيار دوسينار : المصدر السابق .
(٢٥ ـ ٢٦) فيليب بريار وبيار دوسينار : المصدر السابق .

ونقول ، تعقيباً على هذا الرأى أو هذا التفسير الأخير : إن ستالين قدم في مؤتمر الحزب الشيوعي السوفييتي عام ١٩٥٢ ، وبعد هذه المدة الطويلة التي مرت على تقديم لينين لفرضيته السابقة عن الاستعمار ، تقريره المعروف باسم « القضية الأخيرة Last Thesis » والذي تنبأ فيه بمرور وقت طويل قبل أن يصبح الصدام الرهيب الذي « تنبأ » به سلفه لينين حتمياً بين المعسكرين الرأسمالي والاشتراكي « لأن مثل هذه الحرب مخاطرة بالنظام الرأسمالي ووجوده » !! غير أن هذه الحرب ـ الحتمية ـ عندما تقع ، فإنها سوف تسفر ، كما يقول ستالين ، عن تحطيم الرأسمالية والانتصار العالمي للاشتراكية . وقد أكد ستالين على أن البشرية إذا أرادت القضاء على ظاهرة الحرب فإن من الضروري تحطيم الاستعمار ![٢٧].

نحن هنا ، مرة أخرى ، أمام دعاية « وتبرير » قيل في أعقاب الحرب العالمية الثانية . . بعد أن خلت فترة ما بين الحربين من أي تأكيد لصحة « فرضية » لينين السابقة ! ولا غنى لنا في جميع الأحوال عن الإشارة إلى هذه الفرضية ـ الستالينية ـ الجديدة . . لأن ربط (الحرب) بالاستعمار هي الصورة المتممة لربط الاستعمار بالرأسمالية . وسوف يحملنا هذا على الحديث عن « الحروب الاشتراكية » بعد قليل !

ويقتضينا الإنصاف العلمي هنا أن نذكر أن الماركسيين ـ عموماً ـ وفي نطاق تاريخ الاستعمار الأوروبي الطويل ، يميزون في الواقع بين مرحلتين ومصطلحين : المرحلة الأولى : الممتدة من سنة ١٥٠٠ إلى عام ١٨٠٠م ويسمونها « استعماراً » أو يطلقون عليها اسم الانتشار الاستعماري خارج أوروبا . أما المرحلة الثانية فهي الممتدة من عام ١٨٠٠م حتى عام ١٩١٤ ، ويطلقون عليها مصطلح « الإمبريالية » . . فالإمبريالية من خلال هذا المنظور ، أو هذا التقسيم ، نتيجة مباشرة لنشاط الرأسمالية وتطورها . . ولهذا دارت تحليلات الماركسيين للأمبريالية حول « نمو النظام الرأسمالي وتناقضاته » وقد قدموا في ذلك تفسيرين كبيرين ، يقوم أولهما على « الاتجاه إلى تركيز الاحتكارات وإنشائها » ويركّز الثاني على شروط تحقيق « فضل القيمة »[٢٨].

وليس في وسعنا ، ولا من مهمتنا ، أن نناقش هذه التقسيمات أو التحليلات . . لأننا نربط الاستعمار ـ أو الإمبريالية ـ بالسلوك التوسعي لدولةٍ ما أو أمة ما وراء حدودها

---

(٢٧) د. احمد فؤاد رسلان : نظرية الصراع الدولي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٦ ، ص ٢١٩ .

(٢٨) بريار وكلنز : الامبريالية ، ص ٢٣ .

الإقليمية . . بمعنى أن الاستعمار ، عندنا ، مجرد ظاهرة توسع وغزو . . وقد أشرنا فيما سبق إلى أن هذا التوسع بدأ في حروب الاستعمار الأوروبي مع انحسار الوجود الاسلامي في اسبانيا عام ١٤٩٢م . وهكذا فلا فرق عندنا بين الاستعمار والامبريالية ! ولا بين الاستعمار الروسي والامبريالية الامريكية ! أو بين الممارسات الاستعمارية سواء أكانت اشتراكية أم رأسمالية ! . . فكلا المعسكرين يبحث عن « مواد أولية » وكلاهما يسعى إلى « السيطرة على أقاليم خارجية » حتى ولو قال الماركسيون ـ على الورق ـ في تعليل هذا السعي ما يجعله من خصائص الرأسمالية ! لأن الخلاف في التفسيرات أو التعليلات ـ صحت أم لم تصح ! ـ لا يلغي الاتفاق على النتائج ، علماً بأن هذه التعليلات في التحليل الأخير ليست صحيحة على كل حال ، بل نحن لا نرى فيها أكثر من وسائل حجزت الأقاليم غير الأوروبية ـ المجال الحيوي للاستعمار وتوسيع النفوذ ـ عن إدراك حقيقة الاستعمار الاشتراكي الجديد . . الذي لم يكن أكثر من امتداد للاستعمار (الروسي) القديم ، كما سنوضح ذلك في المحور الثاني القادم .

والذي نختم به هذه الفقرة هو أننا لا ننكر ، بعد كل هذا ، أن العملية التي تمت بعد الثورة الصناعية التي شهدتها بريطانيا ، وهي دمج رأس المال المصرفي برأس المال الصناعي ـ الأمر الذي استتبع سيطرة الأوساط المالية الكبرى على الصناعة ـ قد وسعت من آفاق المد الاستعماري ، وأمدّته بأسباب إضافية أخرى هامة ! ولكنها لم تكن مقترنة به ، فضلاً عن أن تكون هي الباعث عليه . على أن في وسعنا أن نلخص هذا السبب الذي حملته الثورة الصناعية أو جاء في ركابها بأنه جاء في الحقيقة من اجتماع الصناعة وا لتجارة في يد واحدة ، لأن الدولة المستعمرة صارت بحاجة إلى احتكار الموارد للحصول على الخامات اللازمة للصناعة ، بالإضافة إلى حاجتها إلى أسواق تحتكرها لتصريف مصنوعاتها بغير مزاحمة ، ولم يكن الجمع بين طلب الخامات وتصريف البضائع المصنوعة متفقاً في « مستعمرة واحدة » أو في كل مستعمرة على الدوام ـ بحيث تؤخذ منها الخامات وتباع فيها المصنوعات ؛ فكثيراً ما وجدت الخامات في بلاد لا تنتفع بها صناعة مستعمريها ، وكثيراً ما وجدت المصنوعات حيث لا توجد الأسواق[٢٩]! ومعلوم أن هذا كان أحد أسباب الصراع بين الدول المستعمرة ؛ حتى تم توزيع الغنائم بوجه من الوجوه !

وفحوى ذلك أن المعادلة الصحيحة هي أن الاستعمار لا بد له من الاحتكار . . وقد

---

(٢٩) عباس محمود العقاد : لاشيوعية ولا استعمار ، ص ١٠٧ .

لا يدل الموقف على أكثر من هذا ، كما أن التعليل الماركسي السابق للامبريالية قد يثبت علاقتها بالرأسمالية ؛ ولكنه لا ينفى علاقتها بالاشتراكية ؛ إن لم يكن على المستوى النظري ، فعلى المستوى العملي أو التطبيقي على أقل تقدير . . ونصل هنا إلى الحديث عن المحور الثاني :

ثانياً : الاستعمار الروسي أو الاشتراكي :

أوجز ما يمكن قوله هنا : المساواة بين روسيا القيصرية وروسيا (السوفيتية) أو الاشتراكية في الممارسات الاستعمارية أو في (المبرر الاستعماري) الذي دارت عليه عجلة الحضارة الأوروبية . ولا يتسع المجال لاستعراض « وقائع » الاستعمار الروسي بعد الثورة البلشفية ؛ ونكتفي من ذلك بالنقاط الأربع التالية :

١ ـ قراءة قيصرية :

أعاد البلاشفة قراءة (العهد القيصري) قراءة « قيصرية » أو استعمارية . . بل جاءت هذه القراءة الجديدة مزيدة ومنقحة !! لأن « القياصرة الجدد » أضافوا إليها فصولاً استعمارية جديدة ، كتبوها ، مع سابقتها ، بأقلام ماركسية ؛ فجاءت أبرع في التضليل ، وأمضى في افتراس الشعوب ، مما فعله القياصرة القدامى « ذلك أن الدولة القيصرية لم تبلغ في عهد من عهودها المظلمة مبلغ الدولة الشيوعية في كثرة البلاد التي تحكمها ، ورهبة الجبروت على محكوميها ، واستطاعة الحاكم فيها أن يصنع بالأرواح والأموال ما بدا له . . . فأوسع القياصرة ملكاً لم يزد ملكه على نصف البلاد التي تشملها الدولة الشيوعية اليوم من أواسط أوروبة إلى شواطىء المحيط الهادي في آسيا الشرقية . . »[٣٠].

ويمكن عد موقف البلاشفة من شعوب آسيا الوسطى التي تدين بالإسلام ، مثالاً صارخاً للاستعمار الذي قادته الثورة البلشفية ! فهذه الشعوب الإسلامية التي تنزع إلى أصول تركية طورانية ، ويتكلم أهلها لهجات من اللغة التركية ، يفهمونها جميعاً بكتابة واحدة ، ولا يصعب على أحدهم أن يتفاهم بها مع أبناء الأقاليم الأخرى ، أمعنت الثورة البلشفية في تمزيقها وإحكام السيطرة عليها ، وقد كان معظمها وقع في قبضة القياصرة القدامى . فوزعتها على عدة جمهوريات ، وعملت على قطع كل علاقة بينها وبين تراث اللغة

---

(٣٠) عباس محمود العقاد : المصدر السابق ، ص٢١ .

والتاريخ ـ وقد فعلت القيصرية الشيوعية ذلك باسم رعاية الحقوق واحترام الاستقلال الذاتي لتلك الشعوب !! ـ أما محاولات اقتلاع انتمائها الإسلامي ؛ فإن أخبارها التي تملأ بطون الكتب لم تعرف في أسوأ صور الاحتلال والاستعمار في التاريخ .. ويكفى أن نشير هنا إلى أهوال كارثة القرم وحدها !!

أعلن الماركسيون في أوائل « الانقلاب الشيوعي » بلاغاً ـ طناناً ـ وجهوا فيه الخطاب إلى هذه الشعوب بصفة خاصة . وأكدوا فيه لكل شعب منها أنه آمنٌ بعد اليوم على حريته التامة في معتقداته وشعائره وعاداته ، ومقومات العرف واللغة بين عشيرته وأهله ، وآذنوه بزوال الحكم القيصري .. وما هو إلا أن هدأت الثائرة واستقرت الدولة الجديدة في مراكزها حتى عادت القيصرية في أشنع صورها ... وصارت الشعائر المقدسة مرادفة للجرائم المحرمة على تلك الشعوب ، حتى الشكوى من القيصرية في إبان طغيانها أصبحت دليلاً على التشبث بالنعرة القومية !! فوجب اتهام المجاهرين بها والقضاء على دعاتها « وتساوى في ذلك الاضطهاد جميع الشعوب الإسلامية من كان منهم في إقاليم أوروبية ، ومن كان منهم في أقاليم آسيا الغربية أو آسيا الوسطى .. »[٣١].

ويبلغ تأكيد هذا المعنى الاستعماري للشعوب الإسلامية مداه في تحريم أناشيد البطولة والوطنية وتحريم سير الأبطال الذين سبق لهم أن قاوموا الاستعمار الروسي القيصري القديم .. لأن ثورة هؤلاء الأبطال انما كانت ـ في عرف الماركسيين ـ ثورة على الأمة الروسية التي ساقت الحضارة والمعرفة إلى تلك الشعوب ! فقالوا ، على سبيل المثال ، في ثورة الشيخ شامل بطل القوقاز الذي هب في وجه القيصر قبيل منتصف القرن التاسع عشر : « إننا أذا أردنا أن نفهم فكرة صميمة عن حركة شامل فلنذكر أنها كانت حركة دينية وأنها أشد أعراض الجامعة الإسلامية نكسة وعداوة »[٣٢] وحين افتخر الشاعر التركماني جمعة مرادوف بالانتماء إلى وطنه « تركمانستان » وتغنى به ، كتبت صحيفة الحزب « تركمانسكانيا اسكرا » تقول : « انه لا يختص التركمان السوفيتية بالكلام بل يعمم القول على جميع بلاد التركمان ويصورها كأنها جنة الأرض ! ... وإنما ينبغي على الشاعر أن يتحدث عن تركمان السوفيتية لأنها إحدى الجمهوريات الأخوات في داخل الاتحاد السوفيتي العظيم » وتصرح صحيفة الدولة ـ برافدا ـ في السابع من اكتوبر سنة ١٩٥٢ أن اللجنة المركزية للحزب الشيوعي تمنع سموم الجامعة الإسلامية .. ثم تصرح في الثالث عشر من شباط (فبراير)

(٣١ ـ ٣٢) عباس محمود العقاد : المصدر السابق ، ص٣٤ ، ٣٦ . وانظر فيه تفصيلات اخرى هامة

سنة ١٩٥٤ بأن المؤرخ سليمانوف مضلل كاذب لأنه يزعم أن الشعوب التركية تجمعها ثقافة مشتركة !! في حين أنهم كانوا قد عقدوا مؤتمراً تاريخياً - كما أسموه - في سمرقند (الحاضرة الإسلامية العريقة) أعلنوا فيه أن أبناء آسيا الوسطى أي الشعوب الاسلامية التي تزيد عن ستين مليوناً ، أشتات متفرقون وليسوا بالعنصر الواحد لا في الأصل ولا في اللغة ولا في التراث القديم ! وقد اجتمع المؤتمر المذكور سنة ١٩٤٥ وأصدر قراره - العلمي ! - بوجوب تصحيح النظر إلى تلك الوحدة المزعومة بين القازان والتركمان والجوغيز والأزابكه وجيرانهم الآخرين[٣٣] . .

يقابل هذا كله : تمجيد التاريخ الروسي والمفاخر الروسية والوطنية والروسية . . وما يزال عهد الإمبراطورة كاترين الثانية الذي بلغ فيه التوسع الروسي أوجه يوصف بأنه عهد الظفر القاصف والغلبة الجانحة والعبقرية الروسية . .

ويمكننا تلخيص السياسة الثقافية ، وسواها من ألوان السياسات المتبعة عند المقابلة بين « روسيا البيضاء » والأقاليم الأخرى بأنها سياسة الاستعمار الاستيطاني القائم على الترويس » أو التذويب في البوتقة الروسية أو السلافية !

بين الوطنية الروسية والمسيحية الأرثوذكسية :

فإذا تذكرنا أن تلك الوطنية الروسية كانت ، ولا زالت ، مرتبطة عند أصحابها بالمسيحية ؛ أدركنا معنى « ضم » الأقاليم الإسلامية ، أو أدركنا أن سياسة « الترويس » تقوم على دعامتي : اللغة الروسية ، والتنصير - كما قامت سياسة « الفرنسة » في الجزائر على اللغة الفرنسية والتنصير - كما أدركنا المعنى (الخاص) باستعمار الأقاليم الإسلامية إذا قيست بالأقاليم المسيحية التي أصابها ذلك التوسع أو خضعت لمثل ما خضعت له الأقاليم الأسلامية ! .

وصف المؤرخ « ديمتري ليخاتشيف » وهو أكاديمي « سوفييتي » بارز في مقابلة صحفية نشرت في موسكو مؤخراً المسيحية بأنها « قوة إيجابية في التاريخ الروسي » وقال : « إن المسيحية وحّدت روسيا عندما غزتها موجات المغول والتتار في العصور الوسطى . . » وقال أيضا : « إن المسيحية لم تخلق أراض وطنية وحسب ، بل أخلاقاً وطنية أيضاً » وفيما يتعلق بالأزمنة المعاصرة قال ليخاتشيف : « ان العلوم البدائية في القرن التاسع عشر ادعت أنها دحضت وجود الله ، ولكن دراسة الذرة واستكشاف الفضاء في القرن العشرين كشف عن

---

(٣٣) عباس محمود العقاد : المصدر السابق ، ص ٣٦ .

ظواهر غامضة تجعل العالم مؤمناً . . . » وأضاف : « وأنا أعرف عدة حالات لعلماء مؤمنين . . »(٣٤) مشيراً بذلك إلى أنه لا يتحدث عن نفسه فحسب . .

وقبل أن أعلّق على هذا الإيمان الذي تحدث عنه « ليخاتشيف » أضيف في الحديث عن الأزمنة المعاصرة ، ما يؤكد مرة أخرى مساواتها أو مشابهتها مع الأزمنة الغابرة ، فيما يتصل بالمسألة الدينية هذه ! احتفل الاتحاد السوفييتي في نيسان « ابريل » من عام ١٩٨٨ بمناسبة مرور ألف عام على دخول المسيحية إلى روسيا ، أو « بمناسبة الذكرى الألفية لتنصير الاتحاد السوفييتي » كما جاء في بعض العناوين ! وقد أعرب الكاردينال « أغوستينو كازارولي » سكرتير « دولة الفاتيكان » الذي شارك في هذا الاحتفال عن دهشته لهذا الحشد الروحي الهائل الذي حضر من كل أنحاء العالم لهذه المشاركة ، مؤكداً أنه لم يسبق أن التقى على الأرض الروسية مثل هذا العدد الكبير من الكرادلة حتى في عز أيام ازدهار الكنيسة الأرثوذكسية في البلاد (!!) ونقلت وكالات الأنباء أن الاحتفالات الروحية في كل الأبرشيات الأرثوذكسية كانت تضم حشوداً هائلة من المؤمنين ومن مختلف الأعمار « بحيث أن الرأى القائل بأن شعلة الإيمان قد انخفضت في صدر الشباب قد بدا غير صحيح » وقالت وكالة أنباء « نوفو ستي » إن ثمة ٦٨٩٣ رعية ارثوذكسية في الاتحاد السوفييتي - كنائس وأبرشيات . . - ويؤكد كاتب المقالة في الوكالة السوفييتية (قلت : وكالة نوفو ستي هي العقل المحلل والناقد والمسوّق للأفكار . أما وكالة تاس فناقل وذائع ومسوّق للأخبار) أنه خلال الفترة الممتدة من عام ١٩٧١ تاريخ انعقاد آخر مجمع محلّي للكنيسة وحتى الآن ، تم تنصير ثلاثين مليون شخص في الاتحاد السوفييتي(٣٥).

لم نعد بحاجة إلى أن نقول تعليقاً على مقالة « ليخاتشيف » المشار إليها : إن الايمان

---

(٣٤) جريدة الخليج ، العدد رقم ٣٢٥٨ تاريخ ١٩٨٨/٣/٢٩ .

(٣٥) من تقرير كتبه من موسكو الصحفي « نقولا صيقلي » ونشر بمجلة الصياد بتاريخ ١٩٨٨/٦/٢٤ . وجاء فيه أيضا أن الرئيس الامريكى - السابق - ريغان عندما كان يتجول في أحد الأديرة ، خلال زيارته للاتحاد السوفييتى عشية احتفالات الذكرى الألفية ، حرص على أن يلتقي عدداً من رجال الدين ، « واكتشف بنفسه ملامح التحول الإيجابي فى العلاقة بين الدولة والكنيسة فى الاتحاد السوفيتي . ولما اطلع على نص المقابلة التي نشرتها « الأزفستيا » مع بطريرك موسكو وكل روسيا « بيمن » أدرك أن زمن اضطراب العلاقات بين الحكومة والكنيسة قد ولّى » . وانظر كذلك مجلة TIME الامريكية (Vol. 131 No. 15) الصادر بتاريخ ١١ نيسان (ابريل) ١٩٨٨ ، الصفحات ٤٦ - ٥٢ .

الذي تحدث عنه المؤرخ البارز أقرب ما يكون إلى « الإيمان المسيحي » الذي كان عليه القوم . . . وهو التعليق الذي يخامرنا في أمثال هذا الموطن . . ذلك أن ما نقلته بعد ذلك يشير بوضوح إلى أن القوم لم يفارقوا هذا الإيمان !! حتى لو أن قائلاً قال : إن « الإيمان المسيحي » أو المعنى الديني في الحضارة الأوروبية ـ بشقّيها الرأسمالي والاشتراكي ـ لم يختف ! لما أبعد ! وقد سبق لنا أن كررنا هذا الرأي في أكثر من مناسبة ![٣٦] وكل ما نود إضافته هنا ـ باختصار ـ هو أن « القشرة الماركسية » لم يكن في مقدورها أن تخفي : « الشخصية الروسية الأرثوذكسية » ولا أن تحجبها في كل مراحل التطبيق الماركسي ، وإن كان قد بدا أنها فعلت ذلك في أول الطريق . . لا في خاتمة المطاف ! فالنسبة العددية ـ الحقيقية ـ لمعتنقي الماركسية في « الدول الشيوعية » ـ كما دُعيت ـ في غاية الضحالة ! . . ومع كل ما تجمع لديها من جبروت الدولة ، وهي تقع في موقع القيادة والتأثير . . فإنها بقيت عاجزة عن « اقتلاع الجذور » والتعفية على التاريخ والتراث (الأوروبيين) ، فضلاً عن عجزها عن إلغاء نوازع النفس وحقائق الاجتماع !!

يضاف إلى ذلك ، في ملاحظة أخرى هامة ، أن « التراجع » الذي تم في « النظرية الماركسية » بُعيد عرضها على التطبيق ـ يوماً بعد يوم ، ولا نقول جيلاً بعد جيل ـ كان يعود بدوره لتأكيد سمات الشخصية الروسية والمجتمع الروسي ـ القديم ـ لأن هذا التراجع كان يتم لصالح « الأوضاع » التي كانت سائدة في هذا المجتمع قبل أن يتمكن من قيادته الماركسيون . . هذا إذا سلّمنا بأن الماركسية خلت نفسها من المعنى المسيحي الغربي ، أو أنها ناقضت « المجتمع الروسي » تماماً ! أو على أقل تقدير : إذا سلّمنا بأنها أحدثت تغييرات حاسمة في طبيعة النمط الثقافي السائد منذ مئات السنين !! وهو الأمر الذي لا يمكننا التسليم به بطبيعة الحال .

---

(٣٦) راجع كتابنا : « في الفكر والثقافة الاسلامية » الطبعة الخامسة ـ المكتب الاسلامي ببيروت (تحت الطبع) وقد أشرنا فيه الى رأي مماثل لكل من الاستاذ مالك بن نبي ، والفيلسوف الناقد : ت . س . اليوت . والفيلسوف فريدريك نيتشه الذي وصف الاشتراكية ـ بحق ـ بأنها البنت غير الشرعية للمسيحية . كما أشرنا أيضا الى ممارسات « التنصير الماركسي » التي تقوم بها السلطات الشيوعية في بلغاريا . وقد قلنا أيضا في كتابنا « انسانية الثقافة الاسلامية » الطبعة الاولى ١٩٨٠ : « إن استمرار الدولة والنظام الشيوعي مرهون بمدى المخالفة التى تحصل بين النظرية ـ الماركسية ـ والتطبيق ، وبمدى التراجع عن أصول المذهب ، لا بمدى الالتزام به وتطبيق أحكامه » .

٢ ـ النهـــب الاقتصـــادي :

إذا أضفنا إلى كل هذا ، المزايا الاقتصادية التي تتمتع بها آسيا الوسطى الإسلامية ، وسائر البلاد الخاضعة للامبراطورية الروسية . . أدركنا تمام المعنى الاستعماري في روسيا الاشتراكية ، وأدركنا حجم النهب الذي يقوم به المستعمرون الماركسيون ، والاستعمار ـ كما سبقت الإشارة على لسان روجيه جارودي ، « نهب ، ولكنه بالدرجـة الأولى قتل » ولا ندري إذا أردنا أن نعقد مقارنة عابرة بين الاستعمار الرأسمالي والاستعمار الماركسي ؛ أيهما كان النهب عنده أظهر من القتل ، أو العكس !! ويبدو من خلال استعراض سريع لشريط الممارسات هنا وهناك أن الأحوال متماثلة أو متقاربة . . وإن اختلفت الأساليب والطرق والشعارات .

على صعيد الجمهوريات الإسلامية وحدها ، تظهر الإحصائيات الواردة في بعض المصادر حجم الانتاج الزراعي والحيواني ، وحجم المواد الأولية ـ اللازمة للصناعة ـ التي « تسهم » فيها هذه الجمهوريات في « روسيا السوفيتية » ! علماً بأن الوقوف على الأرقام الدقيقة أو القريبة في هذا الباب يحتاج إلى دراسة منفصلة يعود فيها الباحث إلى المصادر الـروسية والأوروبية (الغربيـة) . وأكتفي هنـا بـالإشـارة السريعـة إلى جمهـوريـة « اوزبكستان » التي تأتي وحدها بعد الولايات المتحدة الأمريكية مباشرة في انتاج القطن ، حتى سميت بلاد الذهب الأبيض ؛ إذ تنتج أكثر من ثلاثة ملايين طن . وتأتى بعدها « طادجكستان » التي تنتج نصف مليون طن ، أي ما يقارب إنتاج مصر ، الذي يشكل القطن ومنتجاته أكثر من ٦٥٪ من قيمة صادراتها (احصاء عام ١٩٧٨) .

وتنتج « قازقستان » ما يقارب الثلاثة عشر مليون طن من القمح ـ الانتاج العالمي نحو ٤٥٨ مليون طن ـ واكثر من ثلاثين مليون رأس من الأغنام . كما تنتج اوزبكستان تسعة ملايين رأس .

أما على صعيد المواد الأولية ؛ فإن هذه الجمهوريات تنتج أكثر من مائة مليون طن من البترول ، ويبلغ احتياطيها منه ١٤٪ من الاحتياطي العالمي . وفي حين لا يتوفر الفحم ، في العالم الاسلامي ، في غير هذه الجمهوريات وتركية ؛ فإن (قازقستان) تنتج وحدها ٣٨ مليون طن . أما الحديد الذي تنتج روسيا منه ٦٢ مليون طن ، والولايات المتحدة ٦٠ مليوناً ؛ فإن جمهورية (قازقستان) تنتج نحواً من ١٤ مليون طن ، وأذربيجان مليون طن . . هذا ، عدا المواد الأخرى (كالنحاس مثلاً الذي تنتج منه قازقستان نصف مليون طن من الإنتاج العالمي البالغ نحو ٨ ملايين طن) . . الخ .

ويبدو من خلال هذا الاستعراض السريع ، ومن خلال بعض المصادر القريبة التي تناولت هذا الموضوع أن جمهورية (قازقستان) تعد من أغنى البقاع بالمواد الخام ، ومن أفضلها كذلك في الإنتاج الزراعي والحيواني(٣٧) .

٣ ـ الفـــرق الجـــغـــرافـــي (أو المزيـــة الإقليميـــة) :

الفرق ـ الذي لم يُلتفت إليه مع الأسف ـ في الاستعمار الروسي ، أن « روسيا » لم تكن مضطرة لركوب البحار من أجل أن تكوّن امبراطورية ، أو أن تسهم بنصيبها في الحملة الاستعمارية ؛ لأنها فعلت ذلك على حساب الأقاليم المتاخمة والقريبة ، كما يتضح من خلال النظر في « الخارطة الاستعمارية » .

ويمكننا عدّ « الاتصال الجغرافي » أحد العوامل الهامة التي ميزت الاستعمار الروسي عن الاستعمار الفرنسي أو البريطاني على سبيل المثال ! فالفرنسيون لم ينجحوا في « ضم » الجزائر إلى فرنسا ، أو في « إلحاقها » بالوطن الفرنسي ، على الرغم من جميع المحاولات السياسية / البرلمانية ، و« النظريات العلمية الجغرافية » ! وعلى الرغم من « الاحتلال » الطويل الذي « تربّت » في ظله أجيال ، وما صاحبه مع ألوان « الإقناع الثقافي » والقهر المادي . . . الخ ولكن الروس ما يزالون مستمرين في احتلالٍ مماثلٍ للأقاليم الإسلامية في آسيا ، علماً بأن هذا الاحتلال كان بعد احتلال فرنسا للجزائر ! وعلماً بأن الصفات المشتركة بين رجلٍ ما في موسكو وآخر في بخارى أو طاشقند ، مثل الصفات المشتركة بين رجلٍ ما في باريس وآخر في وهران أو الجزائر ! نحن لا نقول إن سياسة « الترويس » نجحت هنا ، حيث أخفقت سياسة « الفَرْنَسَة » هناك ! ولكننا نشير ، أولاً ، إلى دور « العامل الجغرافي » في دعم سياسة الترويس ، كما ندعو ، ثانياً ، إلى ضرورة قراءة سياسة الترويس هذه على أنها سياسة استعمارية قديمة وهمجية ! لا يشفع لها في ذلك « الغلاف الماركسي » الذي جاء به « الرفاق » والذي ظنوا أو زعموا أنه قادر على احتواء جميع المتناقضات أو الفروق بين الروس وبين سواهم من الشعوب أو الأمم المحتلة أو المستعمرة ! لا أناقش هذا الموضوع الآن مناقشة علمية مستفيضة مكتفياً بالاشارات السابقة ولكني أتساءل فقط ، وفي نطاق الشعوب الآسيوية الإسلامية فحسب ، : ماذا يفعل أو ينفع ذلك « الغلاف الماركسي » ـ الأوروبي المسيحي ـ في « الجمع » بين الروس وهذه الشعوب ؟ أو بين

---

(٣٧) راجع في هذه الإحصائيات : محمود شاكر : إقتصاديات العالم الاسلامي ، المكتب الاسلامي . بيروت . الطبعة الأولى .

مجتمعين وأمّتين فرق بينهما : اللغة ، والتاريخ ، والأدب ، والدين ، والفن ، والجنس ، والثقافة . . . وكل ما يميز أمة من الأمم أو شعباً من الشعوب ؟!

ولهذا لم يكن أمام الماركسية ـ أو روسيا الرفاق ـ إلا أن تكرس المعنى الاستعماري القديم ! لأنها حيث فشلت في احتواء جميع تلك الفروق والمتناقضات لم يكن أمامها ـ وقد كان ذلك من طبعها فيما نعتقد ـ إلا بعث جميع معاني الاستعمار القيصري القديم ، أو إعادة تكريسها مرة أخرى . وهذا أحد الأسباب التي جعلت « اضطهاد » الروس للشعوب الإسلامية أشد من « اضطهادها » لسائر الشعوب المستعمرة الأخرى !

واليوم ، وبعد أكثر من سبعين عاماً من قيام « الثورة البلشفية » ! وبعد نحو نصف قرن على نهاية الحرب الكونية الثانية ـ التي مكّنت لروسيا « الرفاق » ما لم يُمكن لـروسيا القياصرة ، من جهة ، والتي ظن البعض أنها بداية تشكيل العالم المعاصر ، كما أسلفنا ، من جهة أخرى ـ تصاب الإمبراطورية الروسية (الماركسية) بالإعياء ويظهر عليها الوهن الشديد ! فقد انحسرت (الفكرة) ـ وكان ذلك قد بدأ منذ زمن ـ وفشل (النظام) ! أو بدا فشله للعيان ! ولم تعد « الروح الامبراطورية ـ الاستعمارية » قادرة على إحكام الطوق في رقاب « الأقاليم » ! فعادت « الخصائص القومية » والعقيدة الدينية الخاصة بهذه الأقاليم للظهور ، أو بدأت تتمكن من التعبير عن نفسها مرة أخرى ! . . . وكأن « الحالة العثمانية » عادت تتكرر في « الاتحاد السوفييتي » الذي أضحى بدوره : الرجل المريض ! ونشير هنا إلى أن أوروبا دخلت في القرن الثامن عشر في « عصر القوميات » في وضع تاريخي قريب أو مماثل .

حملت وكالات الأنباء نبأ التظاهرات التي جرت « في جمهوريات سوفيتية عديدة » ! في الأسابيع الأخيرة تطالب بجعل لغتها لغة رسمية ؛ منها مظاهرة جرت ـ بدون ترخيص ـ بتاريخ ١٩٨٩/٣/١٩ في طاشقند عاصمة جمهورية أوزبكستان في آسيا الوسطى ، وقال مسؤول في وكالة أنباء أوزبكستان : « إن المتظاهرين الذين بلغ عددهم عدة آلاف تجمعوا أمام مقر الحكومة بوسط طاشقند . . . وقام رئيس وزراء أوزبكستان باستقبال وفد من المتظاهرين وناقش معه مسألة جعل اللغة الأوزبكية لغة رسمية ، وكذلك مسألة إصلاح الاقتصاد ، وبعض المشكلات الاجتماعية »[٣٨].

وقد سبقت الإشارة إلى أن « الجمهوريات الإسلامية باتت تعترض على عدم تمثيلها

(٣٨) جريدة الخليج ، العدد ٣٦١٢ الصادر بتاريخ ١٩٨٩/٣/٢١ .

بشكل فعّال ! في السلطة المركزية » . . ذكر ذلك بمناسبة التخوف من أن يثير فصل اقليم « نارغورنو قرة باخ » عن أذربيجان ، وضمه إلى إرمينيا ، حساسية جديدة في الجمهوريات الإسلامية . . بالإضافة إلى أن مثل هذا الإجراء قد « يحمل أقليات أخرى على المطالبة بتصحيح وضعها التاريخي والجغرافي . وقد لا تتوقف هذه المطالبة في إطار الدولة المركزية (!!) بل إن هناك دعوة واضحة إلى الانفصال »(٣٩) .

ولاشك بأن أهم المؤشرات لدعوة الانفصال هذه : المسألة اللغوية المشار إليها آنفاً ، والتي لا تقتصر على الجمهوريات الإسلامية وحدها ! أما « المشكلات الاجتماعية » والقضايا الأخرى المتصلة بالدين والتاريخ والثقافة الخاصة بالمسلمين ، فهي أوضح من أن يشار إليها . . وهي كذلك أعمق وأرسخ من أن تُلغى أو تموت .

٤ ـ المشاركة في الاستعمار الحديث :

إن روسيا الاشتراكية شاركت وتشارك في الاستعمار الحديث الذي قادته الولايات المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية ! ونعني به التأثير السياسي ، والارتهان الثقافي . . بالإضافة إلى الابتزاز الاقتصادي ، فحصة الاتحاد السوفييتي من « موارد » العالم الثاني ـ ودع عنك الأقاليم التي تحدثنا عنها قبل قليل ـ تصل إليه أو يحصل عليها بطرق كثيرة ؛ منها « صفقات السلاح » ـ الدفاعي ، وربما المنسق كذلك ـ وما يتبعها في كثير من الأحيان من ارتهان لبعض المواد الخام أو لبعض المنتوجات الصناعية أو الزراعية . . من أجل إيفاء الديون . . التي يضاعفها ويضاعف من خطورتها على العالم الثاني « الفوائد » التي تضاف عليها في كل عام ! ولطالما جرّت الديون أو الضعف الاقتصادي تأثيرات سياسية خطيرة على هذا العالم

---

(٣٩) جريدة القبس ، العدد ٥٨٩٨ الصادر بتاريخ ١٣/٩/١٩٨٨ ص٣٤ . ونضيف هنا الإشارة الى « القلاقل القومية » في جورجيا ، والتي اتخذت طابعا دمويا . ونقلت بعض وكالات الانباء عن « مصادر تؤيد القومية الجيورجية » أن من بين الشعارات التي رفعها المتظاهرون ، في المظاهرة التي اشترك فيها نحو ٢٠٠ الف متظاهر ، واحدا يقول : « غادروا جيورجيا ايها المحتلون » وأن أعلام جورجيا المستقلة (من عام ١٩١٨ الى عام ١٩٢١) الثلاثية الالوان ظهرت في جامعة تبليسي ـ العاصمة ـ وفي مؤسسات تعليمية عدة . « وتعد مظاهرات جورجيا الأحدث من نوعها فى سلسلة الاعمال ذات النزعة القومية التي جرت في الاتحاد السوفييتى فى الآونة الاخيرة . وقد سبقتها مظاهرات مماثلة فى أذربيجان وأرمينية بالجنوب ، وجمهوريات البلطيق في الشمال » جريدة الخليج ، العدد ٣٦٣١ تاريخ ٩/٤/١٩٨٩ .

لا من قبل روسيا السوفيتية فحسب ، ولكن من قبل جميع الدول الاستعمارية . . وربما من قبل « الهيئات » والمنظمات الدولية كذلك ! غير ان الدول (الكبرى) يبقى لها تأثيرها في قرار السلم والحرب ؛ نظراً لما يتبعه من تحقيق المصالح ، وتحسين (المراكز) وبيع السلاح ، وربما « تسويق المبادىء والشعارات » وربما انفرد الاتحاد السوفييتي في هذا الباب الأخير ـ تسويق الشعارات ـ من بين سائر الدول الاستعمارية بمركز الصدارة . . نظراً للارتهان الثقافي الخاص لدى « الأتباع » الذين يدينون بالمذهب الماركسي أو يرتدون بزّته في قيادات العالم الثاني المنكود !! ونظراً للبريق الذي تمتعت به الماركسية بعض الوقت ـ بعد الحرب الكونية المذكورة وكأثرٍ من آثارها ـ والذي تم « توظيفه » لمطاردة الأفكار والمبادىء التى تقف عثرة في وجه المصالح الاستعمارية المشتركة بين الشرق والغرب ! والتي يأتي الإسلام في مقدمتها بكل تأكيد .

وأخيراً ، فإن الأمر لم يقف عند مشاركة الاتحاد السوفييتي في صور الاستعمار الحديث ، فحسب . . . بل تعداها إلى المشاركة ، وربما الانفراد ، في الربع الأخير من القرن العشرين ، بإعادة سيرة بريطانيا في القرن الثامن عشر والتاسع عشر ! حين اجتاح بجيوشه وأسلحته الحديثة . . أفغانستان الإسلامية ـ المجاورة أيضاً ـ فقتل في أشد صور الاحتلال العسكري همجيةً وانحطاطاً أكثر من مليون رجل وامرأة وطفل من أبناء الشعب الأفغاني . . وشرد أكثر من خمسة ملايين ليعيشوا أشد صور البؤس والفقر والمرض . . ويقضي كذلك على نحو تسعين بالمائة من قرى أفغانستان !!

كيف لا يحق لنا في نهاية المطاف أن نجمع الشرق الماركسي مع الغرب الرأسمالي في نطاق حضارة استعمارية واحدة ؟ . . وكيف يجوز لنا ، بعد كل هذا التاريخ ، وهذه الأحداث والوقائع ، أن نسلّم ببدعة العالم الثالث ؟ وان نروج للفكرة التي تجعل الاستعمار وقفاً على الرأسماليين ، ونستثني منه الماركسيين والإشتراكيين !

ثالثاً : مستكبرون ، ومستضعفون (حول مفهوم التقدم والتخلف)

نصل هنا إلى الحديث عن التسمية المختارة لكل من العالم الأول والعالم الثاني ، لأن القائلين بالتقسيم الثلاثي ـ المعهود ـ يقولون في الوقت نفسه بتقسيم العالم ، قسمية ثنائية ، إلى شمال وجنوب ! ويصفون دول الشمال بأنها « دول غنية متقدمة » ودول الجنوب بأنها « دول فقيرة متخلفة » ! وهذا التقسيم عندهم أساسه اقتصادي ، ويرجعون أسبابه إلى « النهب » الذي مارسه الاستعمار ، أو دول الشمال . . وإلى سائر الممارسات

الاستعمارية الأخرى التي أشرنا إليها في تقسيمنا السابق إلى عالمين اثنين . . ولهذا فهم يلتقون ، في هذه النقطة الأخيرة ، مع هذا التقسيم ، لأن جميع التسميات التي يمكن ان تطلق عندنا على كلٍ من هذين العالمين (الأول والثاني) والتي أشرنا إليها في مطلع هذا البحث ، تدور في جملتها على محور الاستعمار والاستغلال وما يتبعه وينبني عليه من الضعف أو الفقر أو التبعية . .

ولكن هذا الالتقاء ، أو التقاطع ، لا يعني الاتفاق على التسميات والمصطلحات ؛ لأننا نرفض الجمع بين الغنى والتقدم ، وبين الفقر والتخلف ، أو الربط بينهما . . هذا من وجه ، ومن وجه آخر فإن مصطلح (العالم الثالث) لم يأت في الحقيقة من تقسيم العالم إلى شمال وجنوب . . لأن الجنوب هو العالم الثالث نفسه ، ولو سمي في هذه الحال : العالم الثاني لاستقام الأمر ! وإنما جاء نتيجة لقولهم بتقسيم آخر للعالم إلى شرق وغرب ـ فأكملوا بذلك قسمة الجهات الأربع ـ وهذا التقسيم عندهم أساسه عقائدي ؛ قالوا : الشرق الماركسي أو الاشتراكي ، والغرب الرأسمالي !

ونبدأ أولاً بالتعليق السريع على هذه التقسيمات المختلفة قبل أن نناقش مفهوم التقدم والتخلف ؛ وصولاً إلى التسمية التي نرى أن تطلق على كلٍ من العالمين الأول والثاني . .

من الواضح أن تقسيم (الشمال والجنوب) ينطوي على إدراج الاتحاد السوفييتي ضمن دول (الشمال الغني) . . الأمر الذي يشير إلى الممارسة الاستعمارية الروسية أو الاشتراكية التي تحدثنا عنها . . إو إلى (النهب الامبريالي) الروسي ومسؤولية الاتحاد السوفييتي عن الفقر السائد في (دول الجنوب) أو عن « تخلفها » الاقتصادي ، لأن القائلين بهذا التقسيم يحملون الشمال مسؤولية الفقر السائد في الجنوب ؛ كما أشرنا قبل قليل .

ونحن في الوقت الذي نوافق فيه على هذا المعنى تماماً ، ونرى فيه مطابقة للواقع ؛ فإننا نرى أن الوقت قد حان لتجاوز القسمة الأخرى إلى شرق وغرب . . أو إلى اشتراكي ورأسمالي !! وبخاصة أن أصحابها يجعلون أساسها ـ كما رأينا ـ عقائدياً ! لأن المرء حين يتفحص هذه الفروق (العقائدية) التي تسمح بهذا التقسيم . على ما فيه من تناقض عند أصحابه مع التقسيم السابق ، يجد أنها لا تعدو أن تكون فروقا هامشية ، أو فروقاً في الوسائل لا في الغايات . . واذا أنعم فيها الإنسان النظر في ضوء « الشخصية الأوروبية الواحدة » ومن خلال الوسط الديني الثقافي الأوروبي المشترك ، وجد أنها لا تعدو فروقاً في النمط الاقتصادي أو في أنماط التنمية !. . وحتى هذه الأنماط تجري الآن مراجعتها . . ويبدو أنها تجري في طريق الالتقاء على سنن واحدة أو متقاربة !. .

لابد من إعادة النظر في هذه التقسيمات ـ الجغرافية ـ جميعاً ، وإعادة تقريرها أو ملاحظتها على (أساس حضاري) أو على مستوى حضاري شامل ، كما أشرنا في صفحات سابقة من هذا البحث ، وينطوى تحت هذا التقسيم جميع الفروق الهامشية أو المصطنعة بين الشرق والغرب ! وحين « يتفكك » النظام الاشتراكي ، أو « تنحل » الفكرة الماركسية ـ التي لم تكن وقفاً على « الشرق » وحده ! ـ أو تتحلل فإن أمراً ليس بذي بال سوف يقع في « المجتمع الأوروبي » أو « الحضارة الأوروبية » ! لأن انتماء المجتمعات الاشتراكية الأوروبية » ـ إن صح التعبير ـ إلى هذه الحضارة لن يمسّ . . بل سيعاد تأكيده مرة أخرى . . خصوصاً إذا أخذنا بملاحظة الأستاذ مالك بن نبي رحمه الله . . التي يرى فيها أن الشيوعية يمكن عدّها « أزمة » للحضارة الأوروبية ! . . وستكون هذه الحضارة بدأت بعد نصف قرن مضى على تجاوزها لأزمتها العسكرية الثانية والأخيرة . . تتجاوز أزمتها الفكرية أو النفسية التي واجهتها بعد الحربين السابقتين . .

ونحن لا نشك ـ بهذه المناسبة ـ في أن سياسة « الوفاق » التي نجحت حقيقةً في إيقاف الحروب بين أبناء هذه الحضارة ـ وسواء أكانت أوروبا هى المسؤولة عن « تجيير » هذه الحروب إلى أبناء العالم الثاني أم لا ! ـ هيأت لها الانتفاع بثمرات التجارب أو « المذاهب » الفلسفية والاقتصادية والاجتماعية ، وجعلها اليوم على عتبة خيارات ناضجة ومدروسة ! بغض النظر عن مدى امتلاك الشعوب الأوروبية « لإرادة » الاختيار ، و « القدرة » على التطبيق . . وليس فقط لمجرد المفاضلة « النظرية » بين هذه الخيارات .

أما دول العالم الثاني التي تعبت في التردد بين الخيارات الأوروبية السابقة . . وبخاصة منها التي اختارت « الاشتراكية » بعد الحرب العالمية الثانية . . فإن عليها الآن أن تبحث حقيقةً عن « بديل ثالث » أو بديل جديد !

وتبرز هنا مجموعة دول العالم العربي / الإسلامي ، ككتلة متميزة في دول العالم الثاني لا تمتلك « بديلها » أو مشروعها الحضاري الخاص بها ، فحسب ، بل تملك كذلك شروط البديل الحضاري الشامل ، أو شروط الوراثة الحضارية لحضارة العصر الأوروبية . . وهذا هو المحور الرابع الذي سنختم به هذا البحث بعد الفراغ من مناقشة مفهوم التقدم والتخلف .

١ ـ المعيـــار الاقتصـــادي :

لا يمكن التسليم بالاقتصاد ، أو بمستوى الدخل ، ولا بالمعيار المادي عموماً . . معياراً صحيحاً أو مقبولاً « للتقدم » ! بحيث يستقر في الأذهان أن الدول المتقدمة هي الدول

« الغنية » وأن الدول النامية أو المتخلفة هي الدول « الفقيرة » !! ذلك أن (التقدم) الذي يحرزه الإنسان أو أحرزه في تاريخ المجتمعات والحضارات ، مزدوج ، أو له وجهان : يتقدم الانسان في باب التعامل مع الذات (أو الطبيعة الذاتية) ، ويتقدم في باب التعامل مع الطبيعة (أو الطبيعة الخارجية) من حوله .. وبحسب عبارة « ألبرت شفايتزر » : يتقدم الإنسان من خلال « كفاحه » المزدوج : ضد نفسه وأهوائه ، وضد الطبيعة من حوله . ونحن لا نفهم من صورتي الكفاح هذا علاقة قائمة على المضادّة أو القهر ، ولكن نفهم منها فقط الإشارة إلى « ميداني » العمل والمثابرة والتقدم في جميع الحضارات ؛ بغض النظر عن الأولوية التي ينبغى أن تعطى لكفاح الإنسان ضد نفسه أو ضد أهوائه ونزواته !

والتقدم الذي يحرزه الإنسان في باب التعامل مع الطبيعة من حوله هو التقدم « التقني » الآلي .. وهو تقدم في باب « الوسائل » ، والغاية منه تقليل الأعباء المفروضة على الإنسان .. أو تحقيق الرفاهية بمعناها الواسع . وقد قيل في هذا التقدم - الذي يعبر عن ارتقاء « المدنية » في حضارة من الحضارات - إنه يتناسب طرداً مع مدى الدقة « أو التعقيد » في الآلات والأجهزة التي يستخدمها الإنسان .. نظراً لعلاقة هذا التعقيد بتوفير الجهد والوقت ، وتحقيق نتائج أفضل .

وغني عن البيان أن هذا التقدم التقني أو الآلي هو الذي يقف وراء الاقتصاد والمال ، أو المعيار المادي السابق .. وليست المسألة هنا ، كما هو معلوم ، مسألة الموارد أو « المواد » الموجودة في الطبيعة واللازمة للصناعة - والتي سنعرض للحديث عنها في الفقرة التالية - ولكنها مسألة الجهد الإنساني في مجال الصناعة ، أو العقل الانساني القادر على الابتكار .. فالعقل أو الجهد هو الذي ارتقى بتلك المواد إلى درجة « التصنيع » .. والصناعة هي التي ارتقت بالشعوب إلى هذا المستوى من الاقتصاد أو الغنى والرفاهية !

أما « تقدم » الإنسان في باب التعامل مع النفس أو الذات - سواءً صنع آلات أم لم يصنع - فهو تقدم في باب القيم والسلوك ، وسائر المعارف الإنسانية والاجتماعية التي تضبط سلوك الأفراد والمجتمعات .. والغاية من هذا التقدم تهذيب النفوس وتصحيح السلوك وتحديد الغايات ..

ويبدو جلياً من خلال هذين النوعين من « التقدم » أن المجتمعات أو الحضارات التي « تقتصر » على (التقدم) في الباب الأول .. لا يمكن وصفها بالمتقدمة ! لأن التقدم - او السبق بعبارة أدق - في صنع الآلات حين يفتقر إلى الضوابط الأخلاقية والدوافع النبيلة

والغايات الإنسانية . . لا يعدو ان يكون شحذاً للأنياب ! وإطالة للمخالب .

يضاف إلى ذلك أن « الرفاه » المادي ، أو الغنى ومستوى الدخل المرتفع قد يعكس درجة الانحلال في هذه الحال . . ولا يعكس أي درجة من درجات « التقدم » ! وكما تدل عليه أحوال المجتمعات الصناعية أو الغنية في عالم اليوم . . وسوف نثبت ، إن شاء الله ، في دراسة أخرى لاحقة أن جزءاً كبيراً من مشكلات « العالم الأول » يعود إلى هذا الانقطاع بين تقدم الوسائل ، وتخلف القيم أو الغايات . . وفي جميع الأحوال لا يمكننا وصف المجتمع الذي لا يرتقي بالإنسان في مجال القيم أو السلوك بأنه « متقدم »!! فإذا وصل الأمر إلى أن يدمّر الإنسان نفسه ، أو يلحق بها أشد صور التشويه أو التمزيق ، بالمخدرات أو بالأمراض الناجمة عن الانحلال . . أو بسواها من أنواع السلوك ؛ فقد بلغ أقصى درجات التخلّف أياً كان مستواه في « الغنى » أو درجته في « القوة » !

يقول « والتر رودني » : « واذا كان التخلف يرتبط ، في واقع الأمر ، بأي شيء خلاف المقارنة الاقتصادية ؛ فإن الولايات المتحدة تصبح في هذه الحال أكثر البلدان تخلفاً في العالم ، فهي تمارس اضطهاداً خارجياً على نطاق خطير ، بينما يسودها داخلياً مزيج من الاستغلال والوحشية والاضطراب النفسي »[٤٠].

ويمكننا القول ، تعقيباً على هذا الرأي ، إن الاتحاد السوفييتي يقرب من درجة (التخلف) هذه التي أشار إليها « رودني » . . فقد ذكرت صحيفة « برافدا » الناطقة بلسان الحزب الشيوعي السوفييتي أن عمال التعاونيات شبه الرسمية أخذوا يتسلحون بأسلحة مشتراة أو مصنعة ذاتياً للدفاع عن أنفسهم وعن مؤسساتهم بعد تعاظم نفوذ عصابات الجريمة المنظمة في البلاد . وأوضحت الصحيفة أن معدل جرائم القتل ارتفع العام الماضي بنسبة ١٤٪ وجرائم السرقة بنسبة ٤٠٪ ، مشيرة إلى أن هناك (٢٦٠٧) عصابة منظمة ارتكبت أكثر من عشرين ألف جريمة خلال ذلك العام (١٩٨٨)[٤١].

وقد لا يُعفى الاتحاد السوفييتي من الحكم عليه بالتخلف حتى إن قبلنا بمبدأ « مقارنة

---

(٤٠) والتر رودني : أوروبا والتخلف فى افريقية ، ص ٢٧ . العدد ١٣٢ سلسلة عالم المعرفة . الكويت .

(٤١) جريدة الخليج ، العدد ٣٦١٦ تاريخ ١٩٨٩/٣/٢٥ . واوضحت الاحصائيات التي نشرت فى صحيفة « أزفستيا » الحكومية أن معدل الجريمة زاد بنسبة ٣١٪ خلال الربع الاول من هذا العام ، بالمقارنة مع الفترة نفسها من عام ١٩٨٨ ، ووصل عدد الجرائم خلالها الى ٥٠٩,٠٠٠ جريمة . جريدة القبس ، العدد رقم ٦٠٩٠ تاريخ ١٩٨٩/٤/٢٤ الصفحة ٢١ .

الأوضاع الاقتصادية » في جميع العصور ، مقياساً للتخلف ، على رأى « رودني » . . فقد ذكرت « برافدا » في المقالة المشار إليها ، أن ملايين السوفييت يعيش على حد الكفاف بسبب قلة أجورهم وتدني الرواتب التقاعدية ، وأوضحت أن ١٥ مليوناً يعيشون على راتب تقاعدي يقل عن ٦٠ روبلاً في الشهر ! وقالت في موضع آخر : إن حملة الزعيم السوفييتي جورباتشوف ضد الفساد أخذت بالانحسار بعد أن هجر أكثر من نصف الجهاز التفتيشي التابع لوزارة التجارة وظائفهم ، بحثاً عن أعمال تؤمّن دخولاً أكبر(٤٢).

إن مجتمعات الجريمة ، أو المجتمعات التي لا يأمن فيها الإنسان على دمه وماله وعرضه . . وتلك التي لا تؤمّنه ضد الجوع والخوف معاً مجتمعات متخلفة ، ولا يمكن وصفها عندنا بالمتقدمة بحال !

قال النبي صلى الله عليه وسلم ، في خطبة حجة الوداع التاريخية ، في الحديث الذي رواه البخاري وغيره : « فإن الله حرّم عليكم دماءكم وأموالكم وأعراضكم كحرمة يومكم هذا ، في شهركم هذا ، في بلدكم هذا » وكلها ظروف زمانية ومكانية شديدة الحرمة في الجاهلية والإسلام . وقال الله تعالى في سورة قريش : « فلْيعبدوا ربّ هذا البيت الذي أطعمهم من جوعٍ وآمنهم من خوف » .

٢ ـ بين الواقع والشروط :

إذا عدنا إلى قبول « الأوضاع الاقتصادية » المقارنة ، أو إلى مستوى الدخل معياراً للتقدم ؛ فإن علينا حتى في هذه الحال أن نفرق بين « الواقع » و « الشروط » لأن التصنيف المعمول به أو السائد الآن ينظر فيه إلى « واقع » الفقر في الدول الفقيرة ، و « واقع » الغنى في الدول الغنية ، ولا ينظر فيه إلى امتلاك « الشروط » اللازمة للغنى ، أو للغنى والتقدم كما يقولون . . وربما كان حظ الدول الفقيرة من امتلاك هذه الشروط نحواً من حظ الدول الغنّية . . إن لم يكن هذا الحظ أوفى وأفضل . إن الغنى « الواقع » أو المشهود في الدول الأوروبية أو في الدول الصناعية . . والذي يمكن عدة استصحاباً للعصور الاستعمارية ؛

---

(٤٢) جريدة الخليج ، العدد السابق ، ص١٨ . ونضيف هنا ان السعر الحقيقي للروبل ـ العملة الروسية ـ كما أكد خبير اقتصادي سوفييتي اقل خمس مرات من سعره الرسمي المحدد بنحو ١,٦ دولاراً امريكياً . جريدة الخليج ، العدد ٣٦٢٨ تاريخ ٦/٤/١٩٨٩ . هذا ، ويقدر الخبراء حاجة المرء الى ٧٥ روبلا فى الشهر لكفالة الحد الأدنى للمعيشة . جريدة الخليج ، العدد ٣٦٦٣ تاريخ ١٢/٥/١٩٨٩ .

لا يجوز له أن يخدع شعوب العالم الثاني عن حقيقة امتلاكها هي للثروة ، أو لأبسط شروط الغنى - أو التقدم !! - متمثلة في « الطبيعة والإنسان » .. فلديها أولاً الطبيعة الغنية المعطاءة في باب الزراعة و(الطعام) - الأراضي الواسعة ، والمناخ المتنوع ، وإمكانية تطوير الزراعة .. الخ - وفي باب الصناعة وامتلاك المواد الخام .. والتي يأتي في مقدمتها النفط ، الدم المحرك لآلة السلم والحرب أو لمختلف أنواع الصناعات .. ولدى هذه الشعوب ثانياً تلك المواهب والطاقات المذخورة - مع هذا التنوع الهائل في السلالات والأعراق - والتي لا تقل عن نظائرها لدى الشعوب « البيضاء » أو التي يجري في عروقها الدم النبيل !

بالإضافة إلى أن شعوب العالم الإسلامي ، على وجه الخصوص ، تملك قدراً كبيراً أو راجحاً على أقل تقدير من التوازن وعدم الانحلال الذي لحق بالإنسان في تلك الدول « الغنية » أو التي ما يزال يلحق بها يوماً بعد يوم .. إلى جانب الشعور بالتحدي في العالم الإسلامي أمام التفوق « الغربي » أو الأوروبي ، والذي يزداد لدى المثقفين المسلمين كلما ازداد ولاؤهم لثقافتهم وارتباطهم بأمتهم وتاريخهم وتراثهم .. إن هذا الشعور ، فيما نقدر ، هو السبب في التفوق « العلمي » - التقني أو الآلي - الذي يصيبه الطلبة « المسلمون » الدارسون في أوروبا .

ولكن المشكلة في أن هذين العنصرين للّحاق بركب الدول (الغنية) ، واللذان يمثلان أبسط شروط قيام الحضارات وتطور المجتمعات .. لم يفعلا فعلهما حتى الآن ! فعالم الأغنياء - والأقوياء - ما يزال يقوم بمصادرة تلك المواد الخام ، أو ما يزال يحصل عليها بأبخس الأثمان ؛ منذ أيام التنافس الاستعماري حتى الآن . وما يزال أبناء العالم الثاني عاجزين - في جملتهم - عن توظيف مواردهم أو الانتفاع بها على النحو الملائم .. سواء أكان ذلك بسبب نقصٍ في علمهم أو قصور في عملهم .. أو لأي سبب آخر ! وقد نستثني من ذلك بعض الشعوب التي بدأت تشق طريقها ببطء . والذي يمكن ملاحظته هنا هو أن « الإنسان » أيضاً ، وليست الطبيعة فقط ، ما يزال هو الآخر « مصادراً » إن صح التعبير ! وغالباً ما تتم هذه المصادرة عن طريق التعطيل وإلغاء الفاعلية ، حين يصر أصحاب المواهب على البقاء في بلادهم ، أو بهجرة هؤلاء إلى العالم الأول .. ليسهموا في زيادة رصيده من الغنى والقوة ، ويدفعوا فيه عجلة التقدم العلمي / الصناعي إلى الإمام ! هل يجوز لنا أن نقول باختصار : ان خطط العالم الأول تصادر منّا (المواد الخام) وسياسات العالم الثاني تهجّر إليهم (الإنسان المصنّع) ؟!

٣ ـ التسمية المقترحة : (عالم المستكبرين وعالم المستضعفين)

ونصل أخيراً إلى التسمية التي نرى أن تطلق على كل من « العالم الأول » و« العالم الثاني » وهي : عالم المستكبرين ، وعالم المستضعفين ؛ لأن هذه التسمية تلخص أولاً كل معاني الوفرة والقوة التي تقف وراء « الاستكبار » وتدفع إليه ، كما تلخص ثانياً ، أو تشير على أقل تقدير ، إلى أن مشكلات العالم الثاني ليست بمعزل عن « ممارسات » العالم الأول ، لأنه عالم مستضعف ، أي يجري استضعافه من قبل عالم المستكبرين .. وما يتبع هذا الاستضعاف من صنوف العدوان عليه ، والتصرف في شؤونه ؛ قال تعالى : «وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ »(٤٣) .

فهذه الآيات واضحة في أن أولئك « استكبروا » .. أي في أنفسهم ـ وقد صرّحت بذلك الآية الحادية والعشرون من سورة الفرقان ؛ قال تعالى : (لقد استكبروا في أنفسهم وعَلوا علواً كبيرا) ـ وهؤلاء « استضعفوا » أي من قبل غيرهم ، أي من قبل المستكبرين ، كما يفهم من هذه المقابلة بطبيعة الحال . وقد تدل هاتان الصيغتان (استكبروا واستضعفوا) في السياق القرآني المعجز إلى مسألة « الواقع والشروط » التي أشرنا إليها قبل قليل .. لأن الفرق واضح بين الكبير والمستكبر ، وبين الضعيف والمستضعف !!

فإذا أضفنا إلى هذه الآيات الكريمة قوله تعالى : «فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا »(٤٤) أدركنا صورة أخرى من صور التقابل في حياة المستضعفين أنفسهم .. فالأوامر تلقى إليهم من المستكبرين .. من الخارج ، والتبعية تبدأ من أنفسهم .. أي من نفوس المستضعفين .. من الداخل ! وهكذا لم تعد المشكلة تنفيذ أوامر .. بل انقياد أرواح ! وكفى بذلك ـ أي بهذه التبعية ـ ظلماً بيّناً للنفس .. ولهذا جمعتهم الآية السابقة

(٤٣) الآيات ٣١ ـ ٣٣ من سورة سبأ .

(٤٤) الآية ٢١ من سورة ابراهيم .

من سورة سبأ : « ولو ترى إذ الظالمون . . » مع المستكبرين في قائمة واحدة . . من حيث كونهم ظالمين . . فكأنهم ظالمون مظلومون . . أو ظالمون مستضعفون أو مستذلّون . وربما كان الوصول في إدراك الموقف ، أو في الفهم إلى هذه النقطة بداية الوعي أو بداية الحركة باتجاه التغيير في عالم المستضعفين ؛ قال تعالى : « إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ »(٤٥).

ثم إن هذه التسميات ـ ثانياً ـ مصطلحات أو كلمات قرآنية ، وترجيحها ـ من ثم ـ في الاستعمال لا يحتاج إلى تعليل . . خصوصاً إذا ذكرنا « المعاني » الهائلة التي تحملها هذه المصطلحات وسائر الكلمات في القرآن الكريم . . وتمثل هذه المعاني في هذا السياق « الرصيد » الحقيقي لفهم حركة التاريخ . . ومنها سنّة التعاقب والتداول بين المجتمعات والحضارات ؛ قال تعالى : « وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ »(٤٦) وقال تعالى : « وأورثنا القوم الذين كانوا يُستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها . . »(٤٧).

المستضعفون إذن هم أصحاب الحق في الوراثة الحضارية في مشارق الأرض ومغاربها . . حيث يحل « الحق » محل « القوة » . . أو يعود ليحل محلها مرة أخرى : قال تعالى في شأن فرعون : « وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ . فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ »(٤٨)؛ ونصل هنا إلى بيان نقطة الوراثة هذه من خلال الحديث في المحور الأخير التالي عن المزية التي تتمتع بها شعوب العالم الإسلامي في هذا الباب ، أو في عالم المستضعفين .

رابعاً : العالم الإسلامي في « عالم المستضعفين »

على الرغم من انتماء شعوب العالم الإسلامي اليوم إلى « العالم الثاني » أو إلى عالم المستضعفين . وعلى الرغم من أن هذه الشعوب ما تزال كذلك « محلاً » للغزو والتأثير الثقافي . . إلا أن ما لديها من أنماط الثقافة الإسلامية التي انحدرت إليها أو واكبتها منذ

---

(٤٥) الآية ١١ من سورة الرعد .
(٤٦) الآية ٥ من سورة القصص .
(٤٧) الآية ٣٧ من سورة الأعراف .
(٤٨) الآيتان ٣٩ ـ ٤٠ من سورة القصص .

عصر الركود . . والتي هيأت لها الاحتفاظ بحد أدنى من التجانس الثقافي الخاص . . الأمر الذي انبنى عليه مواقف واحدة ، أو ردود فعل متشابهة تجاه « العالم الأول » منذ عصر الصدام معه حتى الآن . . كل هذا يجعل من العالم الإسلامي « عالماً » أو كتلة متميزة في عالم المستضعفين . ويمكن لحظ هذا المعنى أو هذا التقسيم ـ ان صح التعبير ـ في قوله تعالى : « قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ . قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ »(٤٩).

هذا العالم المتميز ، من شعوب العالم الثاني ، هو الذي يتمتع بمزية « الوراثة الحضارية » ، أو بعبارة أدق . . ينفرد العالم الإسلامي بخصوصية امتلاك شروط هذه الوراثة ، لأن هذه الوراثة بعامة هي من حق عالم المستضعفين ، كما دلت على ذلك الآيات القرآنية ، وسوف نعود لبيان دور سائر شعوب العالم الثاني في هذه الوراثة ، أو سوف يتضح لنا هذا الدور بعد بيان الخصوصية التي يتمتع بها العالم الإسلامي في هذا الباب .

المزية الانسانية والاستقراء التاريخي :

ونكتفي هنا بالحديث عن وراثة « المسلمين » أو الحضارة الإسلامية للحضارة القائمة ، أو للعالم الأول ، بمقياس المزية الكبرى أو الأساس للحضارة الإسلامية ، وهي المزية الإنسانية ، أي كونها حضارة إنسانية دارت عجلتها في التاريخ على مبررات إنسانية قوامها روح المساواة بين الأفراد والأمم والشعوب ، بغض النظر عن « واقع » المسلمين المشار إليه ، لأن هذا الواقع لا يلغي مزية « التجربة الإسلامية التاريخية » . . ولا ينقص من خصائص الحضارة والثقافة الإسلامية . هذا من وجه ، ومن وجه آخر فإن واقع المسلمين اليوم لو كان متساوقاً مع خصائص الإسلام وحضارته الإنسانية ؛ إذن لما سلك العالم الإسلامي المعاصر في عالم المستضعفين !!

---

(٤٩) الآيتان ٧٥ ـ ٧٦ من سورة الأعراف . ويشير رد الذين استكبروا ، في الآية الأخيرة ، الى مدى شعورهم بالترفع ! عن الذين استضعفوا وازدرائهم إياهم ، أو مدى « انفصالهم » عنهم على أقل تقدير ، فهم لم يقولوا إنهم كفروا بما ارسل به صالح عليه السلام . . ولكن هذا الذي ارسل به لما آمن به المستضعفون كفروا به ، أي بهذا الوصف ، كأن إيمان هؤلاء بما ارسل به صالح هو السبب الذي حملهم على الكفر !!

أوضحنا فيما سبق من الصفحات الطابع الاستعماري لحضارة العصر الأوروبية ، ونضيف هنا في بيان الطابع الإنساني للحضارة الإسلامية ـ في بضع كلمات[٥٠] ـ أنها حين قامت على المساواة بين الناس جميعاً ، ولم تفرق بين أحد منهم بجنس أو عرق أو لون أو دين . . إنما انطلقت في ذلك من الإيمان المطلق بالله الواحد ، رب الناس جميعاً ، رب العالمين . . لا رب شعب أو قبيلة أو أمة معينة من الناس . كما انطلقت في الوقت نفسه من الإيمان بالإنسان الواحد . . في أصله ونشأته ، وفي حقوقه وواجباته . . أمام القانون وأمام الله جل وعلا . . قال اللّه تعالى : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفسٍ واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبثّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً . . » الآية الأولى من سورة النساء . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « أيها الناس إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد . . كلكم لآدم ، وآدم من تراب » .

وهنا نقول : يقضي منطق « التداول » أو قانون التعاقب بين الحضارات ، بأن حضارة امبراطورية أو استعمارية عندما تترنح وتسقط ؛ فإن الحضارة التي ستخلفها وتقوم مقامها سوف تكون حضارة إنسانية ، أو لن تكون إلا حضارة إنسانية . . فهما نـوعان من الحضارات لا ثالث لهما !

ونبادر إلى القول : إننا نعني بهذين النوعين من الحضارات : تلك التي كان لها السيادة أو الغلبة في الأرض ، أو على مسرح التاريخ العالمي كما يقال . . حتى يصح أن يُطلق عليها أو توصف بأنها حضارة عالمية . ومازال العالم منذ أن انتقل من « حضارة الأنهار » إلى « الحضارة المتوسطية » ـ أو حضارة البحار ـ محكوماً بهذين النوعين من الحضارات الغالبة أو السائدة . . وصولاً إلى العصر الحاضر الذي يمثل ، كما وصفه بعض العلماء بحق ، « حضارة المحيطات »[٥١] . . ولهذا كان أولى العصور بتمثيل أحد هذين النوعين أصدق تمثيل .

---

(٥٠) انظر تفصيلا لهذا الموضوع في كتيب للمؤلف ، بعنوان : إنسانية الثقافة الاسلامية . الطبعة الأولى بيروت ، ١٩٨٠ ص ٤٧ ـ ٥٣ . والصفحات : ٦٧ ـ ٨٥ .

(٥١) انظر حديثا عن هذه الحضارات ، أو عن « هذه المراحل من التطور الحضاري الانساني : المرحلة النهرية ، والمرحلة المتوسطية ، والمرحلة المحيطية » في محاضرة قيمة للاستاذ الدكتور محمد صفي الدين أبو العز ، بعنوان « العالم العربي في الإطار الجيوبوليتيكي العالمي » منشورة في محاضرات الموسم الثقافى لوزارة الإعلام بدولة الإمارات العربية المتحدة . محاضرات موسم ١٩٧٥/١٩٧٦ ، ص٢١٠ .

سادت الحضارة الرومانية ـ الإغريقية ردحاً طويلاً من الزمان بوصفها حضارة إمبراطورية حكمتها هذه « الروح الإمبراطورية » التي ميّزت بين نوعين من الناس ، أو من الشعوب . . روماني متمتع بجميع الحقوق ، وغير روماني مسلوب من جميع الحقوق ! ثم جاءت في أعقابها ونازعتها السيادة ، وزاحمتها لفترة طويلة ، الحضارة الإسلامية ، بوصفها حضارة إنسانية قامت على روح المساواة بين الشعوب . . كما قلنا قبل قليل . . ونضيف هنا إلى هذا الذي قلناه أن « تراث » هذه الحضارة لا يمكن نسبته إلى شعب واحد أو جنس معين !

ثم بعد ان انطفأت فاعلية المسلمين ، وتلاشى تأثيرهم . . وانتهت حضارتهم إلى دور الجمود والتحجر . . إو إلى دورها الأخير ؛ عادت الحضارة الرومانية إلى الظهور مرة أخرى . أو بعثت من جديد بثوب الحضارة الأوروبية المعاصرة . . حيث حلت « الروح الاستعمارية » الجديدة محل « الروح الامبراطورية » القديمة . . أو كانت ، بعبارة أخرى ، امتداداً لهذه الروح ومساوية لها :(٥٢) لأنها ميّزت ، كما رأينا ، بين أوروبي مستعمر متمتع بجميع الحقوق ، وغير أوروبي مستعمَر (بفتح الميم) محروم من جميع الحقوق !

الاستنتاج النظري :

هذه دلالة الاستقراء التاريخي على هذا التداول والتعاقب بين حضارة استعمارية وأخرى إنسانية . والذي نود أن نضيفه هنا هو أن هذا التداول يمكننا أن نستدل عليه كذلك بالتحليل والاستنتاج النظري ، وذلك على النحو التالي :

---

(٥٢) يقول الاستاذ مالك بن نبي : « والاستعمار يعتبر من الوجهة التاريخية نكسة في التاريخ الانساني ، لأننا إذا بحثنا عنه فسنجد أصوله تعود إلى روما ، حيث وضعت المدنية الرومانية طابعها الاستعماري في سجل التاريخ » ويقول : إن المدنية الحاضرة أخذت من الحضارة الرومانية روحها الاستعمارية . ويستدل على ذلك بأن الاوروبيين أنفسهم يردون أعمالهم الى عبقرية الرومان . راجع شروط النهضة ، ص١٤٨ فما بعدها .

ويقول كلود دلماس في مقدمة كتابه : تاريخ الحضارة الاوروبية : « السائد في أذهان الرأي العام أن الحضارة الاوروبية موروثة عن اليونانيين والرومان واليهود . إن هذا لصحيح ، فمن العبث أن ننكر تلك القربى الروحية المتسّمة بالحتمية » ص٥ وانظر فيه استدراكاته على هذا الرأى بما لايتعارض مع ماأشار اليه الاستاذ مالك بن نبي رحمه الله .

الحضارات العالمية ، أو التي سادت على المسرح التاريخي العالمي ، وحكمت وانضوى تحتها شعوب شتى . . إنما نهض بها في الأصل شعب من الشعوب أو قبيلة من القبائل . . ثم انطلق بها هؤلاء في شعوب العالم المختلفة . أقول : إن الطريقة التي « تتقبل » بها هذه الشعوب تلك الحضارة ، هي التي تحدد أو تشير إلى أحد النوعيين السابقين . . فإما أن تفرض هذه الحضارة فى أعناق هذه الشعوب بسلطان القوة ، أو بقوة القهر والتسلط . . فنحن في هذه الحال أمام حضارة امبراطورية أو استعمارية ، وإما أن تتقبلها هذه الشعوب طواعية واختياراً ، فتنضم إليها وتتمثلها ، ثم تحملها بدورها فتدعو إليها وتبشر بها وتدافع عنها . . فنحن هنا أمام حضارة إنسانية !

فكأن التردد أو التعاقب بين « القوة » و « الحق » أو بين « سلطان القوة » و « منطق الحق » أو بين « الضم والإلحاق » وبين « الانضمام والمشاركة » . . ولا ثالث لهما فيما نلاحظ .

الاستقراء التاريخي ، والاستنتاج النظري أو الاستقراء العقلي إن صح التعبير ـ يدلان جميعاً على أن الحضارة الإسلامية هي المرشحة للظهور مرة أخرى . ولكن متى يتم ذلك ؟ وما هي سائر مزايا الثقافة والحضارة الإسلامية ـ فيما وراء المزية الإنسانية الكبرى التي تحدثنا عنها ـ التي تؤيد هذا الاعتقاد أو تؤكده وتدفع إليه ؟ وأي الشعوب الإسلامية هي المهيأة لتبدأ رحلة العودة الطويلة هذه ؟ هل هو الشعب العربي كما يعتقد كاتب هذه السطور ؟ أم شعب آخر ، بعينه ، من الشعوب الإسلامية ؟ وما العوائق التي تقف في وجه هذا التحول المعقّد ، والحدث الكبير ؟ كل ذلك يحتاج إلى بحث مستقل آخر .

دور عالم المستضعفين في هذه الوراثة :

بقي أن نشير أخيراً إلى أن هذه الوراثة الحضارية التي تتمتع بها الشعوب الإسلامية ينبغى عدّها وراثة تشارك فيها سائر شعوب (عالم المستضعفين) لا لأن هذه الشعوب في وسعها أن تنتمي إلى هذه الحضارة الإسلامية وتشارك في صنعها . . بل لأن شعباً من الشعوب لن يجري (استضعافه) في ظل هذه الحضارة ، سواء في ذلك من يشارك في صنعها ، أو من يعيش في ظلّها . . لأن من حق كل فرد أن يتمتع بما يحظى به (الفرد المسلم) !

هذا، في الوقت الذي لا تملك هذه الشعوب : لا في تجاربها (الحضارية) التاريخية ـ الإقليمية أو القومية أو الخاصة ـ ولا في أنماطها الثقافية ، ولا في « تحديها » وقدرتها على تقديم البديل الإنساني الشامل بوجه عام لحضارة العصر الأوروبية . . لا تملك في ذلك كلّه

ما يؤهلها لتلك الوراثة الموعودة . . وبعضها حين يفعل ذلك ، ويحاول ان يكون دوره في عالم المستضعفين اكثر من اللحاق بركب (العالم الأول) - في هذه المرحلة المتأخرة من حضارته - فإنما هو يجادل عن نفسه ! وليس كذلك حال المسلمين ، أو حال ثقافتهم وحضارتهم على أقل تقدير . .

وفحوى ذلك جميعه أن وراثة العالم الإسلامي للحضارة القائمة أو لعالم المستكبرين . . دور طليعي ، قوامه التكليف الأشد ، والجهاد الأفضل ! والله أعلم .

اسْتِفادَةُ العلم عِمَارَةٌ للقلبِ ؛
ومُجَالَسَةُ العلماء والحكماء تَجْلِيَةٌ للأبصار ؛
وبُدُوُّ حال العقلاء قطيعةُ أصناف الجهلاء ؛
وأعْوَنُ الأشياء على تَذْكِيَةِ العقل الخضوعُ للتَّعَلُّم